شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ١٣ إلى الدرس ١٦

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٨/٢٦ هـ

الدرس الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما .

قال المؤلف رحمه الله وغفر له وللشارح وللسامعين :

ولهما عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، وليُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ من أمتي حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي فَأَقُولُ أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي ، فيقال: إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ)). ولهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا ، قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ ، قَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ ؟ قَالَ أَرَأَيْتم لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالَ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ ، فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا)). وللبخاري: ((بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ ، فَقُلْتُ أَيْنَ ؟ قَالَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ ، قُلْتُ وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى ، ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ – فذكر مثله – قال فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ)) .ولهما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : ((فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المائدة:١١٧])).

****

هذه الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله هنا في هذا الباب ؛ باب قول الله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم:٣٠] ؛ هذه الأحاديث ساقها رحمه الله لأنها مبيّنة وموضّحة لحقيقة إقامة الوجه للدين ، لأنها مبينة لحقيقة الإسلام وأنه استسلامٌ لله وإخلاصٌ له ﷻ ولزومٌ لشرعه ودينه وثباتٌ على ذلك إلى الممات ، هذه حقيقة الدين ، وقد مر معنا قريباً وصية إبراهيم الخليل ووصية يعقوب عليهما السلام ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴾. فالإسلام إخلاص لله تبارك وتعالى واستسلام له وثبات على ذلك إلى الممات دون تبديل ودون ارتداد ورجوع القهقرى ؛ بل يثبت على ذلك إلى أن يموت على ذلك ويلقى الله ﷻ بذلك .

والمصنف رحمه الله ساق جملة من روايات وأحاديث حوض النبي الكريم ﷺ ليبين من خلالها هذه الحقيقة ، وليشير أيضاً إلى أن فضائل الإسلام وخيراته وبركاته وثماره الدنيوية والأخروية والتي منها الشرب من حوض النبي الكريم عليه الصلاة والسلام شربةً هنيئةً لا يظمأ بعدها الشارب أبداً ؛ هذا كله من ثمار الإسلام والقيام بحقيقة الدين كما أمر الله تبارك وتعالى ، أما المبدِّل ، المغيِّر ، المحدِث، الناكص على عقبيه ، الراجع القهقرى إلى الوراء فهؤلاء لا نصيب لهم من هذه الثمار ، ولهذا ساق المصنف رحمه الله بعض روايات الحوض .

وحديث الحوض كما نص عدد من أهل العلم حديث متواتر عن النبي ﷺ ، وهو من جملة الأحاديث المتواترة ، بل إن عِدَّة الصحابة الذين رووا حديث الحوض عن النبي ﷺ يزيدون على الخمسين صحابياً ، بل قيل يزيدون على الستين كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري، وجمَع روايات الحوض وجمعها غيره من أهل العلم. والحديث والوارد فيه عن النبي ﷺ حديثٌ متواتر ، والحديث المتواتر يأتي في أعلى درجات الصحة في الأحاديث المروية عن النبي ﷺ ، ولو لم يصِلْنا حديث الحوض إلا من طريق واحد من الصحابة لكان كافياً في الإيمان به والتسليم ؛ لأن العقيدة وأمور الدين لا يشترط في أحاديثها أن تبلغ حد التواتر ، بل تؤخذ العقيدة ولو بخبر الآحاد خلافاً لما عليه أهل البدع ، لكن هذا بيان لمكانة هذا الحديث وكثرة عدد الصحابة الذين رووا عن النبي ﷺ هذا الحديث العظيم؛ الحديث المشتمل على ذكر حوض النبي ﷺ .

ومن الأحاديث التي جاءت في ذكر الحوض في الصحيحين وغيرهما أحاديث مشتملة على صفة الحوض ، لأن النبي ﷺ وصف الحوض وصفاً عظيماً يحرك القلوب شوقاً وطمعاً ورغبةً في الورود عليه والشرب منه وأن لا يكون الإنسان ممن يذادون ويردّون عنه ، وصفه بصفات عظيمة فقال ﷺ في وصفه له : ((طوله شهر وعرضه شهر–أي أن طوله وعرضه سواء– ، وماءه أحلى من العسل ، وريحه أطيب من المسك ، ولونه أبيض من الورِق –أي الفضة ، وفي رواية أبيض من اللبن، يعني في غاية البياض، في بعض الروايات في الصحيح: أبيض من الورِق أي الفضة، وفي بعض الروايات أبيض من اللبن –، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا)) يعني إذا شرب من هذا الماء لا يحس بعد ذلك بظمأ ولا يحس بعطش ، وهذه خاصية جعلها الله ﷻ في ذلك الماء العظيم في الحوض المورود الذي يكون في عرصات يوم القيامة .

وقد جاء في بعض الأحاديث أن الكوثر – والكوثر غير الحوض ، الكوثر في الجنة – فيه ميزابان يشخبان ؛ أي يصبان في حوض النبي ﷺ . ولهذا يأتي أحياناً إطلاق الكوثر على الحوض لا لكونه هو الحوض ؛ وإنما لكون الماء الذي يُصَب فيه هو من الكوثر ، وإلا الحوض في عرصات يوم القيامة والكوثر في جنات النعيم ، والكوثر يُمِد الحوض ويشخب منه ميزابان في الحوض المورود الذي يكون في عرصات يوم القيامة .

والناس كما هو معلوم من الأدلة يقفون في عرصات يوم القيامة موقفاً عظيماً جاء في القرآن والسنة أن مقدار ذلك اليوم خمسين ألف سنة ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[المعارج:٤] ، وهو وقوفٌ طويل ويحصل للناس فيه من العناء والتعب والشمس تدنو منهم خمسين ألف سنة . تأمل وقوفك في الصيف والشمس في كبد السماء وليس هناك هواء بارد يلطف الجو وليس هناك ظلٌ يستظل به الإنسان ؛ كيف يكون عطش الإنسان في مثل ذلك المكان!! في يوم واحد ؛ فكيف بيوم كان مقداره خمسين ألف سنة !! والله ﷻ يكرم أهل الإيمان وأهل الصدق مع الله ﷻ وأهل الصلاح وأهل المحافظة على دينه والبعد عن التبديل والتغيير بأن يظلّهم ﷻ بظل عرشه العظيم يوم لا ظل إلا ظله ، وأيضا جاء في المستدرك وغيره بسند ثابت عن النبي ﷺ أن الله ﷻ يهوّن ذلك اليوم الطويل الذي هو مقداره خمسين ألف سنة على أهل الإيمان فيكون لهم كما بين صلاة الظهر إلى صلاة العصر ؛ كرامةً منه ﷻ لأهل الإيمان . نسأل الله الكريم رب العرش العظيم من فضله .

يرِد الناس في ذلك اليوم الحوض الموروود يبحثون عن الماء ؛ العطش شديد ، والحاجة إلى الماء ماسة جداً ، وأكبادهم جفت تريد ماءً ، فيرِدون إلى الحوض ، وقد جاء في حديث ثابت أن لكل نبي حوض ترِد عليه أمته ، ولنبينا ﷺ حوض مورود تميّز عن غيره ، وقد وصفه النبي ﷺ بصفات مر معنا بعضها ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((كيزانه عدد نجوم السماء)) أي : في الجمال والحسن والكثرة ؛ فهي كثيرة عدد نجوم السماء ، وجميلة أيضا مثل جمال نجوم السماء . فيرِد الناس على الحوض البهي الجميل الحسن طيب الريح طيب الطعم طيب المرأى والمنظر ، يردون في أشد ما يكونون من العطش ثم هناك يذاد عنه أقوام ،لم يُذادون ؟ هذا بيت القصيد أو أساس المقصود من إيراد المصنف رحمه الله لأحاديث الحوض ، أساس المقصود هنا : أن يحقق الإنسان في حياته الدنيا حقيقة الإسلام ويجاهد نفسه على معرفة حقيقة الإسلام وتطبيقها والعمل بها والثبات عليها إلى الممات؛ حتى يكون يوم القيامة من هؤلاء الذين يمنّ الله ﷻ عليهم بكرامته فيرِدون حوض النبي عليه الصلاة والسلام دون أن يذادوا عنه.

والأحاديث التي ذكر فيها النبي ﷺ حال من يذادون عن الحوض تخيف المؤمن العاقل ، من الذي يرضى لنفسه أن يرِد إلى الحوض وهو في أشد العطش وأشد ما يكون حاجة إلى الماء ثم يُطرد ويذاد ويُبعد ويؤخذ به إلى النار؟! ولهذا أورد المصنف رحمه الله هذه الأحاديث في هذا الباب الذي فيه بيان إقامة الوجه لله ﷻ نصحاً لعباد الله حتى يجتهد العبد ما دام على قيد الحياة ومادام في الأمر مهلة وسعة وفي الأمر مجال أن يجاهد نفسه على معرفة الإسلام ومعرفة حقيقته ويجاهد نفسه على العمل به وتطبيقه حتى ينال هذه الكرامة العظيمة فيشرب من حوض النبي ﷺ ، ثم تتوالى عليه الخيرات والنعم والبركات متوّجةً بدخول جنات النعيم ، وأعظم ذلك رؤية الرب الكريم ﷻ ولذة النظر إلى وجهه وهذا أكمل نعيم ؛ فهذا كله يحتاج من العبد إلى مجاهدة نفسه على معرفة الإسلام وتكميله والبُعد

عن نواقصه ونواقضه ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣] ، ((لَيْسَ الإِيمَان بِالتَّمَنِّي وَلاَ بِالتَّحَلِّي، وَلَكِن الإِيمَان مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَال)) ؛ ليس الإيمان كلمة تُدَّعى ولا أمنية ترتجى؛ الإيمان حقيقة تقوم في قلب المؤمن يتبعها عملٌ وجدٌّ واجتهادٌ واستسلامٌ لله ﷻ وطواعية وامتثال لأمره وثباتٌ على ذلك إلى أن يلقى المؤمن ربه ﷻ غير مبدِّل ولا مغيِّر كحال من قال الله ﷻ في شأنهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣] ، لا يغيِّر في الدين وإنما الذي يُطلب منه إقامة الدين بحقيقته التي أُرسل وبُعث بها رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

حقيقةً هذه الأحاديث مفيدة جداً في هذا الموضع غاية الفائدة ؛ حتى يتنبه العاقل ويتبصر ويتفكر في هذا الأمر قبل أن يفوت الفوات ؛ مادام في الوقت سعة وعنده مهلة يتعلم ويتفقه ويحقق إسلامه فهذه فرصة كما يقال لا تعوَّض ولا تُقدَّر بثمن ، فوجب على العاقل أن تفتح له أمثال هذه الأحاديث أبواباً في الهداية والاستقامة وإقامة الدين والمحافظة على طاعة رب العالمين والبعد عن البدع والأهواء والضلالات والانحرافات وشغْل الأوقات بطاعة الله ﷻ بما شرع مخلصاً له ويجاهد نفسه على الثبات على ذلك إلى أن يلقى الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله : ((**ولهما**)) أي البخاري ومسلم ((**عن ابن مسعود** ﷺ **قال: قال رسول الله** ﷺ : **أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ**)) ؛ فرطكم : أي سابقكم إليه ومتقدِّمكم إليه ومن يصل إليه أولاً . فالنبي ﷺ يصل الحوض أول الناس ؛ فهو فرَط الناس إلى الحوض صلوات الله وسلامه عليه ، ثم يأتي بعد ذلك الناس تِباعاً يرِدون الحوض للشرب منه بحثاً عن الماء وطلباً لدفع العطش والظمأ فيذهبون إلى الحوض ، والنبي ﷺ قد سبقهم إليه .

قال: ((**وَلَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ من أمتي**)) يعني يتقدمون إليه ويأتون إلى حوضه من أجل الشرب .

قال: ((**حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي**)) يعني أخِذوا عني وصُرفوا عني ؛ حتى إذا أهويت: يعني جاؤوا إليه ﷺ ليشربوا من الماء وإذا أهوى أي بيده للحوض ليغترف لهم منه ولينالوهم من ماءه ليشربوا اختلجوا أي ذيدوا كما في بعض الروايات وأبعدوا عنه ﷺ .

((**فَأَقُولُ أَيْ رَبِّ**)) يعني يا رب ((**أَصْحَابِي**)) يعني هؤلاء أصحابي لماذا يُذادون عن الحوض ؟ ولماذا يُحرمون من الشرب من الحوض ؟

((**فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) وهذا فيه أنه ﷺ لا يعلم الغيب ، فهؤلاء النفر الذين صحبوا النبي ﷺ ثم يحصل لهم هذا الذود عن حوضه ويعرفهم عليه الصلاة والسلام ، قيل يعرفهم بأشخاصهم لأنه رآهم ، وقيل يعرفهم بعلاماتهم ؛ كما يأتي في بعض الروايات بأثر الوضوء ((غراً محجلين عليهم أثر الوضوء)) ، ومعنى ذلك أنهم

يصلّون وأثر الصلاة عليهم ظاهر ومع ذلك يُذادون عن الحوض ، فيقول ((أي رب أصحابي)) وفي بعض الروايات ((أصَيْحَابي)) بالتصغير ، وقد قال العلماء : التصغير هنا يعني تقليل العدد . فهؤلاء قلة عدد قليل من الذين كان لهم صحبة ثم حصل منهم بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام ارتداد عن دينه ونكوص على العقبين أي القهقرى إلى الوراء ، ووجود الردة أمرٌ معروف بعد موته ﷺ من بعض الذين كان إسلامهم على طرف ، قال الله ﷻ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج:١١] ، فبعضهم يكون إسلامه على طرف وأدنى شيءٍ يغيّره ، فمن كان على هذه الشاكلة أسلم وإسلامه على طرف وبعد موت النبي عليه الصلاة والسلام حصل له ارتداد عن الدين ونكوص على العقبين فهؤلاء يُذادون ، وهم عدد قليل بالنسبة للصحابة عموماً . وقد أجمع أهل العلم قاطبة من أهل السنة والجماعة أن هؤلاء ليس فيهم واحد من المهاجرين والأنصار وأعيان الصحابة الذين لهم المواقف المشهودة والأعمال المشهورة ممن شهدوا بدراً وأُحُداً وشاركوا النبي ﷺ في بيعة الرضوان وأخبر رب العالمين أنه رضي عنهم وكان عددهم كبيراً ؛ فليس من هؤلاء واحد ، وإنما هؤلاء الذين حصل فيهم الارتداد أناسٌ حدثاء عهد بإسلام ، وإسلامهم كان رقيقا وعبادتهم لله ﷻ كانت على طرف ، وهم عدد قليل مقارنة بجموع الصحابة وأعداد الصحابة الذين هم خير أمة أخرجت للناس أخبر عنهم رب العالمين بذلك ، والذين هم خير القرون أخبر عنهم عليه الصلاة والسلام بذلك ، وإنما المعني بهذا أناسٌ قلائل ربما رأى الواحد منهم النبي ﷺ المرة أو المرتين فحصلت له الصحبة بالرؤية والإسلام ، ولكن كان إسلامه على طرف وعلى ضعف وعلى رقة في الدين ، ولما مات النبي عليه الصلاة والسلام ارتدوا بعده ﷺ ؛ فيعرفهم لأنه رآهم ولكنه لا يدري ماذا حصل منهم بعد مماته عليه الصلاة والسلام .

وقوله: ((**فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) ؛ فيه التكذيب لقول من يقول إن النبي ﷺ يعلم الغيب ، وبعضهم يقولون إنه حاضر ناضر ويعلم ما في الصدور ، إلى غير ذلك من الضلال بل من الكفر ، لأن من زعم أن النبي ﷺ يعلم الغيب فهو كافر بالقرآن ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[النمل:٦٥] ، الله ﷻ مختص بالغيب ، وهنا قال: ((**إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . ولهذا قوله ((**فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) فيه دلالة على أن من قال "إن النبي ﷺ يعلم الغيب" ممن أحدثوا بعده حدثاً عظيماً يتعلق بالاعتقاد يترتب عليه فساد العبادة . ولننتبه لهذا – لأن من ادّعوا في حقه ﷺ أنه يعلم الغيب تعلقت قلوبهم به تعلقاً لا يكون إلا بالله ﷻ ، فتوجهوا إليه برغباتهم وطلباتهم وعرضوا عليه حاجاتهم وطلبوا منه المدد والعون وغير ذلك ؛ وهذا كله مبني على أمثال هذه العقائد الباطلة ، فهذا كله داخل تحت قوله : ((**لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) لأن هذا من الحدث في دين الله المتعلق بالاعتقاد المترتب عليه فساد السلوك والعمل .

قال: ((**فَأَقُولُ أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي فيقال إنك لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**)) ؛ قلت وأؤكد أن هذا – وهو أمر أجمع عليه أهل العلم قاطبةً من أهل السنة والجماعة – لا يتناول خيار الصحابة وأئمة الأمة وسلف الأمة من المهاجرين والأنصار ، فليس في هؤلاء واحد ممن شهد بدراً ولا ممن شهد أحُداً ولا ممن شهدوا بيعة الرضوان ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] ورضاه عنهم بقي وحْي يُتلى في كتاب الله ﷻ يخبر ﷻ عن رضاه عنهم ، فكل هؤلاء ليس منهم واحد يتناوله هذا الذود ، وإنما يتناول هذا الذود نفراً قليلاً وعدداً يسيراً بالنسبة لعموم الصحابة ممن كان إسلامهم –كما قدمت– على حرف وعلى طرف .

ومع هذا كله فإن أقواماً ابتلوا – والعياذ بالله – بارتكاس القلوب وانتكاس العقول وقلَبوا الحديث قلباً ، فجعلوا الحديث منصبّاً على خيار الصحابة ؛ بل جعلوا – والعياذ بالله – في مقدِّمة من يذادون أفضل الصحابة وهو صديق الأمة ﷺ الذي لا يوجد أحدٌ في الصحابة نُصَّ على لفظ صحبته في القرآن إلا هو ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ [التوبة:٤٠] ، لا يوجد أحد من الصحابة حظي بمثل هذا صديق الأمةﷺ فجعلوه في مقدمة من يذاد ومعه عمر ومعه عثمان ومعه خيار الصحابة ولم يستثنوا منهم إلا سبعةً أو تسعةً أو عدداً قليلاً يعد على أصابع اليد الواحدة والبقية كلهم يذادون ، ويصفونهم بأنهم أحدثوا وبدّلوا وارتدوا ، ويقولون إن الصحابة ارتدوا إلا نفر قليل: علي وسلمان وعدد قليل ، والله ﷻ في القرآن قال : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠] هؤلاء أخبر الله ﷻ برضاه عنهم ، بل إنه ﷻ زكّاهم تزكيةً عظيمة في التوراة والإنجيل قبل أن تدرج أقدامهم على الأرض وقبل أن يطئوا الأرض ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ [الفتح:٢٩] هذه تزكية لهم في التوراة قبل أن يمشوا على الأرض، زكاهم رب العالمين ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ هذه تزكية لهم في الإنجيل قبل أن يوجدوا. زكاهم رب العالمين في التوراة ، وزكاهم تبارك وتعالى في الإنجيل ، وتُليت تزكيتهم في التوراة والإنجيل رِدْحاً من الزمان ، ثم نزلت تزكيتهم في القرآن وذكر رب العالمين في القرآن رضاه عنهم ؛ ثم يأتي أقوام ويدّعون أنهم ارتدوا عن الدين وأنه لم يسلم منهم إلا قلة قليلة !! هذا – والعياذ بالله – ارتكاس في القلوب وانتكاس في العقول ، ولهذا ابن كثير رحمه الله في تفسيره لما أشار إلى هذه المقالة قال : «وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عُقُولَهُمْ مَعْكُوسَة وَقُلُوبَهُمْ

مَنْكُوسَة» ؛ يعني لا يقول هذا أحد عنده قلب سليم وعنده عقل مستقيم إلا إذا ارتكس القلب وانتكس العقل ، وإلا شخصٌ عنده قليل من عقل لا يمكن أن يقول هذه المقالة.

والوقيعة في الصحابة والطعن فيهم ليس مختصاً بهم بل هو طعنٌ في دين الله ، الصحابة هم نقلة الدين ، هم الذين نقلوا لنا دين الله ، الدين كله عرفناه من طريقهم ، فإذا طُعن فيهم يكون الطعن في الناقل طعن في المنقول ، ولهذا قال أبو زرعة الرازي رحمه الله : «إذا رأيتم الرجل ينتقص أحداً من أصحاب النبي ﷺ فاعلموا أنه زنديق لأن القرآن حق والدين حق وإنما أدى إلينا ذلك الصحابة – هم الذين بلغونا هذا الدين – وهؤلاء أرادوا أن يجرحوا شهودنا فهم بالجرح أولى فهم زنادقة» ، فالجرح في الصحابة والطعن في الصحابة طعن في الدين ذاته.

ثم تجد هؤلاء يستغرب بعضهم يقولون عن أهل السنة أنهم يروون هذا الحديث حديث الحوض وأنه يذاد نفر عن الحوض والنبي ﷺ يقول ((أصحابي أصحابي)) !! يقولون إن أهل السنة يروون هذا الحديث!! نعم نروي حديث الحوض ونعرف من المعني به ؟ وهو حديث متواتر رواه عن النبي ﷺ أكثر من ستين صحابيًا وليس فيهم من كان من هؤلاء ؛ أعيان وخيار الصحابة وأفاضل الصحابة وأماثل الصحابة ورووا الحديث ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ، كانوا من أشد الناس خوفاً من التبديل وإنكاراً له ورداً للبدع ، ومن يقرأ تاريخهم المجيد ومآثرهم العظيمة يجد بلاءهم الحسن في نشر السنة وبيان الدين ورد البدع وبراءتهم من المبتدعة وأهل البدع وأهل الضلال ، وكم من مرة يعلنون البراءة ((أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَهُمْ بُرَآءُ مِنِّي)) ، يعلنون ذلك في مواقف كثيرة جداً ، وبدايات البدع وُجدت في زمانهم فتبرؤوا منها ، فأصول البدع وبداياتها وُجدت ووجد منهم البراءة منها ، كانوا على الإسلام الخالص وبدأت تظهر البدع وكانوا كلما ظهرت بدعة تبرءوا منها ، ثم يأتي الموغلون في الابتداع والإحداث ورجوع القهقرى فيرمون الصحابة بما هم حقيقةً واقعون فيه –أي هؤلاء المحدثون–!! وانطبق عليهم قول القائل "رمتني بدائها وانسلّت" .

فالشاهد أن هذا الكلام يعني أفراداً قلائل كان في إسلامهم رقة وكانوا حدثاء عهد بإسلام وحصل منهم ارتداد بعد موت النبي ﷺ .

ومن مناقب أبي بكر الصديق ومآثره العظيمة : حرب المرتدين ؛ ويزعم هؤلاء أنه زعيم المرتدين ومقدَّم المرتدين!! ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤] ، أبو بكر هو الذي كان من مناقبه العظيمة في خلافته حرب المرتدين ؛ حاربهم وصمَد في محاربتهم وكان له مواقف عظيمة جداً قال: ((وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ)) . وأبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه ليسو أفضل هذه الأمة فقط ؛ بل هم بشهادة نبينا ﷺ أفضل أمم الأنبياء كما جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال : ((أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ)) ، فيأتي في الدرجة الأولى بعد الأنبياء أبو بكر وعمر في الأمم كلها ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ . ونحن نرجو

الله ﷻ ونسأله أن يحشرنا مع أبو بكر ومع عمر ومع عثمان ومع هؤلاء الخيار في زمرة النبي ﷺ وصحابته الكرام الذين نشهد بالله ﷻ أنهم ما بدلوا تبديلا ، كما قال الله ﷻ ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾.

ثم قال رحمه الله : ((**ولهما عن أبي هريرة** رضي الله عنه **أن رسول الله** ﷺ **قال: وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا ، قَالُوا** -أي الصحابة- قال ((**أَنْتُمْ أَصْحَابِي**)) .

انتبه هنا ؛ النبي ﷺ يقول ((**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**)) والصحابة حوله ، قالوا : ((**أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟**)) ، أصحابي وإخواني أي الدرجتين أعلى ؟ درجة الصحبة ؛ الصحبة فيها صحبة وأخوّة ، ولهذا قالوا ((أولسنا إخوانك؟)) هم إخوان النبي ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] ، فقال ((**أَنْتُمْ أَصْحَابِي**)) ، فهؤلاء لهم درجة الصحبة ونصرة النبي وأخْذ الدين منه ورؤيته ﷺ ، وهذه منقبة لا يشاركهم فيها أحد ، كل مَن جاء بعدهم مهما بلغ في الإيمان والعلم لا يبلغ رتبة الصحابة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام :((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)) ، فمن بعدهم لا يبلغ رتبتهم ، وقد منّ الله ﷻ عليهم وأكرمهم بما لا يكون لغيرهم من نصرة وهجرة ونشر للدين ودعوة إلى دين الله ، وكل من جاء بعد الصحابة للصحابة حظٌ من حسناته لأنهم نقلوا الدين لمن بعدهم ، مر معنا الحديث: ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ)) ، هذا العلم الذي سمعناه الآن وصل لابن مسعود أجر ، ووصل لأبي هريرة أجر، وكل صحابي ننقل حديثه ويبلغنا حديث النبي ﷺ من طريقه له أجر في ذلك ؛ لأن ((الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ)) ، ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا))

((**قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي**)) وهذا فيه تفضيل الصحابة وتشريفهم ، والأمر واضح.

قال: ((**وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**)) ؛ أريد أن نقف هنا وقفة قبل المواصلة في هذا الحديث لنربط بين هؤلاء الإخوان الذين قال عنهم النبي ﷺ ((لم يأتوا بعد)) وبين الأصحاب الذين هم مع النبي ﷺ جنباً إلى جنب؛ اقرأ الرابطة في سورة الحشر ، وصف الله ﷻ الذين يأتون بعد بقوله ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠] هذه حلية الإخوان الذين قال عنهم هنا عليه الصلاة والسلام : ((**وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**)) ، ما علامتهم ؟ قال رب العالمين في ذكر علامتهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ فمن كان في قلبه غل على الصحابة ويلهج بلعنهم والطعن

فيهم والوقيعة فيهم هل هو داخل تحت قوله ((**وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**)) ؟! حاشا وكلا ؛ لأن رب العالمين ذكر علامة لهؤلاء الذين يأتون بعد ، لما ذكر المهاجرين وذكر بعدهم الأنصار ذكر الذين يأتون بعد قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي علامتهم وحليتهم وزينتهم وصفتهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ؛ فلهم سمتان : الأولى تتعلق بالقلب ، والثانية تتعلق باللسان ؛ أما القلب فسليم ، قلوب هؤلاء سليمة ليس فيها غل وليس فيها حسد وليس فيها ضغينة وليس فيها امتلاء ضد الصحابة الأخيار ، قلوب سليمة نقية تجاه الصحابة وتجاه المؤمنين السابقين .

والصفة الثانية: سلامة اللسان ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ؛ ليس في ألسنتهم إلا الترحم والاستغفار والدعاء ، وليس في قلوبهم إلا المحبة والصفاء والنقاء ، فالقلوب نقية والألسن نظيفة ، القلوب ليس فيها تجاه الصحابة إلا محبة ، والألسن ليس فيها تجاه الصحابة إلا الدعاء والاستغفار ، أما من إذا ذُكر عنده أبو بكر وعمر استوحش كأنه ذُكر عنده أشد أعداء الدين ؛ بل بعضهم يستوحش من ذكر أبي بكر وعمر أشد من استيحاشه من ذكر إبليس!! هل هذا يدخل ؟ لا والله ، هيهات أن يدخل .

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ وهذه دعوة ينبغي أن يُكثر منها المسلم ، لأن الله أثنى على هذه الدعوة ، وجاء في هذه الدعوة فضائل ، الله قال لنبيه: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد:١٩] ، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة)) ، فأنت إذا دعوت بهذه الدعوة التي في الآية ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ كم لك من حسنة ؟ إذا أردت أن تعرف الجواب فكم إخوانك الذين سبقوك بالإيمان !! هذا هو الجواب ، فبعددهم لك بكل واحد حسنة ، وهل قولك ﴿ إِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ يختص بأمة محمد أو يشمل ؟ فلك من زمن آدم إلى ما شاء الله من الحسنات في كلمة واحدة ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ، فانظر الأجور العظيمة التي يكسبها سليم القلب سليم اللسان، وانظر إلى الآثام المتراكمة التي يكتسبها من يقع في الأماثل الأخيار صدر الأمة وخيارها .

وحقيقةً ؛ من يقع في الصحابة بالثلب والسب لا يضر الصحابة شيئاً ؛ بل إن الصحابة يحصِّلون من وراء ذلك أجوراً، أشارت إلى هذا المعنى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما بلغها عن نفر يتكلمون في بعض الصحابة فقالت : «إن الله لما قطع عنهم العمل – يعني الصحابة بالموت – أحب أن لا ينقطع عنهم الأجر» ، ويبين هذا المعنى الذي تشير إليه عائشة رضي الله عنها الحديث المعروف بحديث المفلس يقول فيه ﷺ للصحابة : ((أَتَدْرُونَ

مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)) ؛ فهذا المفلس حقيقةً من يأتي يوم القيامة بهذه الصفة ، وأيُّ إفلاس أشد وأفظع من أن يكون السب للخيار !! إذا كان سب آحاد المسلمين يترتب عليه هذا الأمر فكيف بسب سادات المتقين من الصحابة الأخيار الذين أثنى عليهم رب العالمين وزكاهم وعدّلهم وأثنى عليهم رسوله الكريم ﷺ وزكاهم وعدلهم صلوات الله وسلامه عليه !! إذاً هذا يبين لنا الرابطة بين الإخوان والأصحاب .

قال: ((**أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانِي هم الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ ، قَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ؟**)) واسمع هذا المثال العجيب من الناصح عليه الصلاة والسلام ((**قَالَ: أَرَأَيْتم لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟**)) ؛ الخيل الغر : التي في نواصيها بياض ، والمحجلة : التي في أطرافها في يديها وقدميها بياض . ففي طرف القدم بياض وفي طرف اليد بياض والناصية بيضاء . يقول أرأيتم لو أن رجلا عنده خيل غر محجلة ثم دخلت في خيل دُهمٍ بُهم يعني خيل سوداء بُهم ليس فيها شيء من البياض ولا قطعة يسيرة هل يميز خيله أو لا يميزها ؟! واضحة تماماً .

وهنا اختار النبي ﷺ هذا المثال لأن له ارتباط ، لأن أهل الإيمان وأهل الصلاة يأتون غراً محجلين من أثر الوضوء ؛ فيأتون يوم القيامة الوجه أبيض والأيادي بِيض والأقدام بيض من أثر الوضوء ، من أثر الوضوء غراً محجلين فيأتون بهذه العلامة فكيف لا يُعرفون وكيف لا يميَّزون والعلامة ظاهرة !! وكان عليه الصلاة والسلام قد قال في حديث صحيح ((وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ)) ؛ وهذا فيه محافظة على الوضوء الكامل للقدم ولليد ؛ حتى إنه رأى في عِقب رجل قطعة من البياض ما وصلها الماء –وهذا يؤثر على التحجيل– فقال: ((وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ)) ؛ فإذا كان ﷺ رأى في عقب رجل ولم ينتبه لذلك دائرة صغيرة لم يصلها الماء فقال ((وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ)) ، فكيف بمن إذا أراد أن يتوضأ لا يأتي إلا بقليل من الماء ويمسح على طرف قدمه من أعلى ولا يصل قدمه ؟ ثم يأتي هذا الذي يفعل هذا الأمر ويقول إن الصحابة ارتدوا وأنهم يذادون عن الحوض !! فهذا كله مما يوضح الانتكاس في العقول والارتكاس في القلوب وقلب الحقائق عياذاً بالله تبارك وتعالى . وعلى كل حال هذه علامة واضحة ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الإخوان الذين يأتون بعد .

قال: ((**قَالُوا بَلَى**)) يعني لما ذكر النبي ﷺ هذا المثال قالوا بلى ؛ يعني يميزهم ، إذا كانت الخيل بهذه الصفة سهل التمييز .

((**قَالَ فَإِنَّهُمْ** – وهذا توضيح للأمر – **يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ**)) ؛ وهذا فيه أهمية المحافظة على الوضوء ، والوضوء تحافظ عليه لماذا؟ للصلاة ، ففيه أهمية المحافظة على الصلاة وحسن الإقبال على الله تبارك وتعالى وأن

يحسن الإنسان وضوءه وأن يحسن صلاته ويحسن إقباله على عبادة ربه ﷻ، والوضوء من أجل إقامة الصلاة وصلاة بلا وضوء غير مقبولة ، فالإنسان يحسن وضوءه ويحسن صلاته ويحسن إقباله على الله ﷻ ليكون من هؤلاء الذين يأتون بهذه العلامة العظيمة ويكرمهم الله ﷻ بالشرب من حوض النبي عليه الصلاة والسلام .

هنا فيه : وضوء ، وصلاة ، وحوض ، وغر محجلين ، ولعل فيه ارتباط ؛ جاء في المستدرك للحاكم بسند صحيح عن أنس بن مالك ﷺ قال : «لقد تركت بعدي عجائز ما تصلي واحدة منهن صلاة إلا سألت ربها أن يوردها حوض محمد ﷺ» ؛ وفيه ارتباط ، أنت الآن لما تصلي وتُقبِل على وضوئك وتستحضر هذه المعاني تشتاق ، والوضوء هذه علامة لأهل الإيمان ، فيجتهد الإنسان في تكميل وضوءه وتتميم صلاته ونفسه مقبِلة ، فلعل هؤلاء النسوة من الصحابيات ومِن غيرهم ممن تركهن أنس في المدينة على هذه الحال لا يصلّين صلاة إلا سألن الله ﷻ أن يوردهن حوض النبي ﷺ لأنها معاني مترابطة . الصلاة نفسها صلة بين العبد وبين الله ، ويؤديها لينال كرامته عند الله ﷻ ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام في صلاته كما في حديث عمار بن ياسر يقول : ((اللهم إني أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)) ، فالصلاة بطهارتها ووضوءها وحسن إقامتها تجلب للإنسان خيرات وبركات في الدنيا والآخرة ، وفيه ارتباط بين الصلاة وبين الثمرات التي تنال يوم القيامة .

قال: ((**وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ**)) : أي أنا السابق إليه والمتقدم إليه .

((**أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ ، أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا**)) هنا لاحظ ؛ ((**أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ**)) يؤخذ من هذا الحديث أن الذود الذي يحصل ليس مختصاً بأولئك القلة الذين صحبوا النبي عليه الصلاة والسلام ثم حصل منهم ارتداد ؛ بل من وقع منه هذه المعاني فله هذا الوعيد وله هذا الحكم . هناك قال: ((أصحابي)) ، وهنا قال: ((ليذادن رجال)) ، وقال ذلك بعد ذكره للإخوان الذين يأتون بعد الصحابة ، فقال: ((**لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ**)) فهذا نستفيد منه وكذلك من الحديث الآتي بعده : أن الأمر الذي هو الذود عن الحوض ليس مختصًا بأولئك القلة من الصحابة الذين حصل لهم ارتداد بعد موت النبي ﷺ بل يتناول أيضا أناسٌ فيما بعد يحصل منهم مثل هذا الأمر ويحصل لهم التخلي عن الدين والانصراف عنه إلى حيث الشرك والضلال وعدم الاستسلام لله ﷻ وإخلاص الدين له ، ينصرفون إلى هذه الأمور فينطبق عليهم قوله: ((**فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ**)) .

فيقول: ((**سُحْقًا سُحْقا**)) ؛ الذي يقول هذه المقالة هو الذي وصفه الله بقوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ؛ فيقول ((**سُحْقًا سُحْقا**)) وهذا يدل على الحرمان العظيم الذي يتبوأه من أحدث وبدّل في دين الله ﷻ .

ثم أورد رحمه الله بعد ذلك حديث النبي ﷺ في صحيح البخاري ، قال عليه الصلاة والسلام : ((**بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ ...**)) الخ .

قال: ((**بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ**)) الحديث جاء في صحيح البخاري في كثير من النسخ ((بينما أنا نائم)) ، وجاء في رواية الكشميهني لصحيح البخاري ((بينما أنا قائم)) ، يقول الحافظ ابن حجر في فتح الباري : أن هذه الرواية ((بينما أنا قائم)) – بالقاف وليس بالنون – أوجه ؛ لأنها تشير إلى أن النبي ﷺ بينما هو قائم أي على الحوض . وتوجيه رواية ((بينما أنا نائم)) أي أنه ﷺ أرِي في منامه ما سيكون يوم القيامة على الحوض ، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله اختار هنا رواية الكشميهني ((بينا أنا قائم)) لأنها الرواية التي قال عنها الحافظ ابن حجر أوجه من رواية ((بينما أنا نائم)) ، ومعنى ((بينما أنا قائم)) : أي قائم على حوضي .

قال: ((**بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ**)) ؛ والزمرة هي الجماعة ، ومعرفته لهم تكون بالعلامة التي مرت معنا قريبا ؛ غرٌّ محجلين يعني من أثر الوضوء .

حتى إذا عرفهم بهذه العلامة ((**خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ**)) ؛ بين النبي ﷺ وبين هؤلاء الذين هم مقبِلون عليه وعلى حوضه ، فيخرج رجل من بين النبيﷺ وبين هؤلاء وقد ذكر أهل العلم أن هذا ملَك يكِل الله ﷻ إليه هذا الأمر ، فهم مقبلون عليه وهو يرتقب وصولهم إليه عليه الصلاة والسلام بينا هم على هذه الحال إذ خرج رجل من بينهم يعني جاء رجل في الوسط بين النبي ﷺ وبين هؤلاء ؛ ماذا يصنع هذا الرجل ؟

((**فَقَالَ** – يعني هذا الرجل– **هَلُمَّ**)) ؛ اقتربوا الآن من الحوض ما بقي إلا قليل ويصلوا إليه ليشربوا منه شربة من يد النبي ﷺ لا يظمأ بعدها الشارب أبداً ويخرج هذا الرجل بينهم وبين النبي ﷺ فيقول لهم هلم يعني تعالوا.

((**فَقُلْتُ : أَيْنَ ؟**)) النبي ﷺ يقول للرجل أين ؟ يعني أين تذهب بهم ؟

((**قَالَ : إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ**)) ويحلف بالله ، يعني سآخذهم إلى النار .

((**قُلْتُ : وَمَا شَأْنُهُمْ ؟**)) ؛ لأن النبي عرفهم وعليهم العلامة ((حتى إذا عرفتهم)) فيقول : ((وما شأنهم؟)) يعني لماذا إلى النار والله ؟ لماذا تأخذهم إلى النار ؟ وقد عرفهم عليه الصلاة والسلام ورأى فيهم العلامة !! فيقول إلى النار والله !! فيقول ﷺ وما شأنهم ؟

((**قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى**)) يعني إلى الوراء رجعوا .

((**ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ؛ فذكر مثله**)) يعني زمرة ثانية ؛ ((ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلم فقلت أين ؟ قال إلى النار والله قلت وما شأنهم ؟ قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى)) .

((**قال فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ**)) ؛ لا يخلص : أي لا ينجو منهم إلا مثل همل النعم . وهاتان الزمرتان الذين قال ﷺ ((فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ)) يعني إلا قلة ؛ همل النعم : يعني النَّعم الضالة،

الهمل التي ليس لها راعي ، الضائعة ، فلما تقارن همل النعم بالنَّعم نفسها تجد عدد قليل ، قال ((فلا ينجو منهم إلا مثل همل النعم)) .

أحد المعاصرين في قلبه غل على الصحابة وتكلم كلام قبيح جداً في حق الصحابة ، ولما جاء هذا الحديث بدّله ليُروي غلّه على الصحابة فغيّره وقال : "روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال :لا يخلص منكم إلا مثل همل النعم" ، وقال : هذه شهادة من النبي ﷺ أنه لا يخلص ، فغيّر لفظ الحديث ثم فسره على ما يروي غليله الدفين بالحقد على أصحاب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ فجمع بين حشف وسوء كيلة والعياذ بالله، وهذا بسبب الحقد الذي تظلم به القلوب على أصحاب النبي ﷺ ، وأنت ترى الحديث أمامك قال: ((لا ينجو منهم)) الضمير يعود على الزمرتين ، وهاتان الزمرتان هل هما فقط هم من يرد الحوض ؟ لا ؛ يرِد عوالم على الحوض ، وذكَر هاتين الزمرتين وذكَر هذا الوصف لهم وقال في الحديث: ((إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم))، فالحديث واضح المعنى ولكنه حرَّف لفظه ليطوِّعه في الدلالة على ما في قلبه من حقد دفين ضد أصحاب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . ولو كان المعنى الذي يقوله صاحب هذا الحقد وأمثاله مراداً ؛ هل يقول النبي ﷺ مخاطباً الصحابة ((ليذادن أقوام))؟! – وهذا معنى ألمح إليه ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» وغيره من أهل العلم – لو كان المعنى الذي يعنيه هذا وأمثاله مراداً كان الخطاب بهذا اللفظ " لتذادُن عن الحوض " ، ويقول أيضاً "لا ينجو منكم إلا مثل همل النعم " مثل ما حرّف هذا المحرف. لكن النبيﷺ قال: ((ليذادن أقوام)) ، ((ليذادن رجال)) وألفاظ الأحاديث واضحة المعنى والكلام واضح المعنى .

وعلى كل حال من قرأ هذه الأحاديث وتدبرها تحرّك في قلبه إيماناً وتفتح له تذكرة وتبصرة وعظة ويبدأ يحاسب نفسه ؛ لأنه لا يرضى إنسان لنفسه هذا الأمر أن يُذاد هذا الذود وأن يُطرد هذا الطرد . لاحظ هذه المعاني : ذود عن الحوض ، ملَك يأخذه إلى النار بعد أن أقبل على الحوض ، والنبي ﷺ يسأل ما شأن هؤلاء ؟ وفي الحديث الآخر يقول ((سحقًا سحقا)) ؛ من الذي يرضى لنفسه أن يكون مع هؤلاء !! فالمصنف رحمه الله أراد هنا أن يبين أن قراءة أحاديث الحوض والتفهم فيها والتعقل لها والتدبر في معانيها يحرك في قلب الإنسان يقظة في فهم الإسلام وحقيقة الإسلام ، والثبات على الإسلام ، والبعد عن الارتداد والنكوص على العقبين ، والبعد أيضا عن الإحداث في دين الله ﷻ ، فإن المحدِث في دين الله على خطر عظيم، لأن في عدد من روايات الحديث قال: ((إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) ؛ فهذا يدل على خطورة الحدث في دين الله ﷻ ، وأنه يجني على الإنسان جنايات بالغة منها هذا الذي يتعلق بالحوض ((إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) .

قال : ((**ولهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : ((فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾**)) ؛ أي أنه ﷺ يقول هذا

الكلام كما يقول ذلك العبد الصالح عيسى عليه السلام ، فلما يرى هذه الحال ويرى هذا الوصف وهو عليه الصلاة والسلام الناصح المشفق ، لكن لما يرى ردة وتبديل ونحو ذلك يقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

أحد التابعين كان إذا روى هذا الحديث وذكر تمامه قال عليه الصلاة والسلام في تمامه: ((إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى)) كان يقول : "اللهم إنا نعوذ بك أن نرتد على أدبارنا أو أن نفتن في ديننا" ، لأن الإنسان إذا فُتن في دينه بالبدعة ربما أوصلته بدعته إلى الكفر ، وقد مر معنا أن البدعة بريد الكفر – والعياذ بالله – . فوجب على الإنسان أن يتقي الله سبحانه وتعالى وأن يجاهد نفسه مجاهدة تامة على البعد عن البدع ومحدثات الأمور وعن البعد عن الأمور التي تصرف الإنسان وتصده عن دينه ، وأن يجاهد نفسه على معرفة الدين والمحافظة عليه والعمل به وسؤال الله تبارك وتعالى الثبات على الدين إلى الممات ، وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ كما صح بذلك الحديث ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)) ، وفي بعضها ((اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)) ، وكان أيضا من دعائه كما في صحيح مسلم ((اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)) .

أسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يمن علينا أجمعين بورود حوض النبي الكريم ﷺ ، وأن نشرب منه شربة لا نظمأ بعدها أبدا ، ونعوذ به تبارك وتعالى من البدع والأهواء والضلالات ، ونعوذ به أن نُفتن في ديننا أو أن نرتد على أعقابنا ، ونسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يهدينا إليه صراطا مستقيما ، ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أحباب النبي ﷺ حقا وصدقا ومن أنصاره وأعوانه عليه الصلاة والسلام ، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته وتحت لوائه ، وأن يكرمنا بالدخول معه في جنات النعيم ، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

الدرس الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف الإمام رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح وللسامعين :

ولهما عنه مرفوعا : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا ثم قرأ أبو هريرة ﷺ: ﴿ فِطْرَةَاللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠])) **متفق عليه** .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**ولهما**)) أي البخاري ومسلم ((**عنه**)) أي ابن عباس ((**مرفوعا**)) أي إلى النبي ﷺ .

قال: ((**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**)) هذا أحد ألفاظ هذا الحديث ، وقد جاء بألفاظ متقاربه ؛ منها هذا اللفظ الذي أورده المصنف ، ومنها اللفظ المشهور ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ، وجاء أيضا بلفظ : ((لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ، وجاء في بعض الألفاظ ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا يولد عَلَى الْمِلَّةِ)) . والحديث يدل على أن جميع بني آدم يولدون على الفطرة ، على الملة ، على الحنيفية ، على الإسلام؛ كلهم يُفطَرون أي يُخلقون مجبولين على ذلك ، الفطرة : الجبلة التي يُخلق عليها الإنسان ويوجد عليها وهي الإسلام .

وقد دل على أن الفطرة هي الإسلام الآية التي جعلها المصنف رحمه الله عنوانا لهذا الباب ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَاللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠] فوصف الفطرة بأنها الدين ، كذلك بعض روايات هذا الحديث ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْمِلَّةِ)) فهذه رواية مفسِّرة ، كذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال : ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) فقوله «حنفاء» وقوله «عَنْ دِينِهِمْ» هذا يدل على أن الفطرة المراد بها الإسلام ، ولهذا جماهير أهل العلم على ذلك ؛ على أن المراد بالفطرة الإسلام ، بل حكاه ابن عبد البر إجماعاً عن أهل العلم .

فقوله : ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) أي يولد على الإسلام ، يولد على الملة ، يولد على الحنيفية ، يولد على الإخلاص ، يولد على الاستسلام لله ﷻ ، يولد على النفور من الشرك ؛ كل مولود يولد على هذه الفطرة ، وما

يحصل له من تغيُّرٍ وتحول بعد ذلك ليس أمراً ولد عليه وجُبل عليه بل هو طارئ ، فالشرك طارئ على الإنسان وهو تغير في فطرته كما أن الشرك طارئ على البشرية ،كان الناس على التوحيد ، آدم وذريته كانوا على التوحيد لا يعرفون شركاً فُطِروا عليه وجُبِلوا عليه ولا يعرفون شركاً أصلاً ، يولدون على التوحيد وينشئون عليه وليس أمامهم وبينهم شرك ، ثم بعد ذلك اجتهد الشيطان في اجتيال الناس عن التوحيد الذي هو الأصل إلى الشرك الذي هو طارئ ، فكما أن الشرك طارئ على البشرية وليس هو موجودٌ معهم في ابتداء الأمر بل كانوا قروناً على التوحيد ؛ فكذلك الشرك طارئ على فِطَر الناس وعلى آحاد الناس وأفرادهم ، فكل مولود يولد على الفطرة سليماً ؛ فإذا حصل فيه تبدُّل إلى يهودية باطلة أو نصرانية منحرفة أو وثنية مشركة أو غير ذلك من الأديان ، فهذه الأديان المحرفة الباطلة الفاسدة لم تولد مع الإنسان وإنما طرأت عليه بمحيطه ووالديه ومجتمعه ؛ وإلا أصله ناشئ على الفطرة التي هي الإسلام ، قال عليه الصلاة والسلام : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ)) ، وجاء في بعض الأحاديث ((كُلُّ بَنِي آدَمَ)) هذا ليس مختصاً بأبناء المسلمين ؛ بل كل بني آدم يولدون على هذه الفطرة ، ولهذا قال عن أبناء اليهود في الحديث نفسه : ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**)) يعني أبناء اليهود يولدون على الفطرة ، أبناء النصارى على الفطرة ، أبناء المجوس على الفطرة . قال: ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**)) ولم يقل يُسْلِمانه لأنه يولد على الإسلام ، فذكَر الأديان المنحرفة الباطلة التي يحوَّل إليها عن الإسلام الذي فُطر عليه وجُبل عليه .

قال: ((**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**)): أي إلا على الملة كما جاء في بعض الروايات ، والملة هي الإسلام؛ الحنيفية السمحة ، والمراد بالإسلام هنا ليس تفاصيل الإسلام وتفاصيل الشرائع ؛ فهذه لا تُعرف بالفطرة ولا يوصل إليها بالفطَر المجردة ، وإنما المراد بالفطرة هنا : الحنيفية التي هي البراءة من الشرك والإخلاص لله والاعتراف بأنه وحده ﷻ المستحق للعبادة والاستسلام له ﷻ والخضوع ؛ فهذا الإسلام فُطر الناس عليه ، أما تفاصيل شرائع الإسلام فهذه لا سبيل إلى العلم بها إلا من طريق الوحي ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى:٥٢] ، يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ !! وهو عليه الصلاة والسلام ولد على الفطرة ولم يحدث لفطرته أي تغير ، حفظه رب العالمين وسلّمه ، مع أنه عاش في مجتمع عاش على الشرك بالله والتنديد وعبادة الأصنام ولكن الله ﷻ حفظ فطرته وسلّمها ولم يدخل عليه شيء من عقائدهم وشركياتهم ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله : «من قال أن محمدًا ﷺ كان على دين قومه فقد أعظم الفرية» ؛ ما كان على دين قومه ولم يقع في شيء مما وقعوا فيه ، بل بقيت فطرته سالمة ، مع أنه عاش في مجتمع متضمخ بالشرك والباطل إلا أنه حفظه رب العالمين من ذلك فنشأ محفوظة فطرته عليه الصلاة والسلام من الشوائب والانحرافات ، ثم يقول الله ﷻ له: ﴿ مَا

كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ، فما المراد بالإيمان الذي لا يدري عنه عليه الصلاة والسلام حتى نزل عليه الوحي ؛ ونحن عرفنا أن الفطرة هي الإسلام ؟

قال العلماء : تفاصيل الشرائع ؛ الصلاة المكتوبة خمس مرات في اليوم والليلة ، صلاة الظهر أربع ، العصر أربع، صيام شهر رمضان ، إلى غير ذلك من الفرائض ؛ هل للفطرة سبيل أن تعرف هذه التفاصيل ؟! لو خُلي بين الإنسان وبين فطرته لم تحوَّل ولم تبدَّل هل له سبيلٌ أن يعرف هذه التفاصيل بالفطرة ؟ الجواب : لا ليس له سبيل إلى ذلك ، فلا تُعرف تفاصيل الشرائع إلا بوحي الله ﷻ ، ولهذا قال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ . وهذه الآية توضح لنا قوله ﷻ في سورة الضحى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى:٧] ، ليس معنى ﴿ ضَالًّا ﴾ أي على دين قومه ، كما سبق بيان بطلان ذلك من كلام الإمام أحمد رحمه الله، كذلك في كلام غيره من أهل العلم ؛ و إنما المراد بـ﴿ضَالًّا ﴾ : أي عن تفاصيل الشرائع ، فهو عليه الصلاة والسلام لم يهتدِ إليها ولم يعرفها إلا بالوحي الذي نزّله الله تبارك وتعالى على قلبه، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥] ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء:٤٥] كما أمره الله جل وعلا.

قال : ((**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**)) هنا ذِكر التحول عن الفطَر كيف يكون ؟ كيف يحصل للإنسان أن يتحول عن فطرته وأن يُجتال عن الدين الذي فطر عليه ؟ بيّن ذلك عليه الصلاة والسلام ؛ قال: ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**)) ، وذِكر هذه الثلاث ليس على سبيل الحصر وإنما على سبيل التمثيل ؛ تمثيلاً للانحراف بأشهر المذاهب والأديان المنحرفة وأبرزها ، وإلا كل الأديان المنحرفة والعقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة حتى أيضا هذا الحديث يتناول المذاهب الفاسدة المنتسبة للإسلام ، فالتحول الذي يحصل للفِطَر والتغيَّر الذي يحصل لها بالعقائد الفاسدة مع بقاء صاحبها منتسباً للإسلام هذا أيضا يتناوله الحديث ، بتحول الإنسان عن فطرته إلى مذهب منحلٍّ فاسد منحرف مصادم للدين الذي بعث به النبي عليه الصلاة والسلام حتى وإن انتسب صاحبه إلى الإسلام فالحديث يتناول ذلك ؛ لأنه داخل في جملة الانحراف عن الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها .

فإذاً قوله: ((**يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**)) هذا خرج مخرج التمثيل وليس الحصر ، وإلا فالأمر يتناول كل إبعادٍ للإنسان عما جُبل عليه العبد ، ولهذا جاء في حديث عياض الذي تقدمت الإشارة إليه وذِكره قال الله تعالى: ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) ؛ لاحظ هنا قضية التحول

عن الفطرة ، أو تحديداً لاحظ عوامل التغير عن الفطرة من خلال الحديثين : حديث عياض فيه ((أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ)) ، والحديث الذي معنا في هذا الباب قال : ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ)) ، فهذان عاملان للتحول عن الفطرة : الأول : الشيطان ؛ ولهذا لا يلزم أن تتحول فطرة الإنسان عن التوحيد أن ينشأ بين أبوين يهوديين أو نصرانيين أو مجوسيين ، فقد ينشأ الإنسان في مجتمع مسلم وبين أبوين مسلمين ثم -والعياذ بالله- تجتاله الشياطين عن دينه ، ولا يكون أخذ الدين الباطل من أبويه وإنما أخذه من مصدر آخر.

فإذاً قوله : ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ**)) ؛ ذِكر الأبوين هنا لأنه الأغلب في انحراف من ينحرف ؛ لكونه ينشأ على ما كان عليه أبواه كما قيل: «وَيَنشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا عَلى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبوهُ»

فالولد ينشأ يحاكي والده ، ولهذا يقولون "الولد سر أبيه" ، يحاكي والده ويقلد والده في حركته وفي مشيته وفي حديثه وأيضا في قناعته بالخطأ الذي يرتكبه والده ، لأن معزّة الوالد ومكانته في النفس تجعله إما أن يتقبل أخطاء الوالد ، أو يحمل أخطاء الوالد على محامل يرى أنها حسنة وجميلة ، وينشأ على ما عوّده عليه والده ، لأنه ينشأ في هذه الحياة بين هذين الأبوين فيصعب عليه أن يخرج عن الشيء الذي نشأ عليه في البيت الذي نشأ فيه وتربى .

فلأن الغالب في الانحراف والتحول في الفطر على يد الوالدين الكافرين قال: ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**)) ؛ وإلا الأقارب أحيانا ، والمجتمع أحيانا ، والوسائل الأخرى للانحراف ؛ هذه كلها عوامل تشكل خطورة على فطَر الناس في حرْفهم عن دينهم وعن الفطرة التي فطرهم الله ﷻ عليها إلى حيث الفساد والضلال والخرافة والانحراف والأوهام ، ولا يسْلم من هذا الانحراف في البشرية إلا القليل ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣]، مع أن الجميع يولدون على الفطرة إلا أن الأكثر ينحرف عنها ولا يسلم إلا القليل ، ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص:٢٤] ، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] ؛ فالقليل هو الذي يُكتب لفطرته السلامة .

ولهذا مر معنا قريباً ما يستحب للمسلم أن يقوله كل صباح وكل مساء ؛ استحضار الفطرة وسلامتها ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) وفي المساء يقول : ((أَمْسَيْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ..)) ، فيومٌ يصبح فيه العبد على الفطرة السليمة وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين محمد ﷺ وعلى ملة إبراهيم غير مبدّل ولا محرَّف ولا مغيَّر خير يوم ، خير يومٍ للإنسان هو هذا اليوم الذي يكون فيه باقيا على الفطرة لم يتحول ، ويجدد كل يوم هذا الثبات على الفطرة ولزومها وعدم الانحراف عنها؛ ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ)) ؛ وفطرة الإسلام : هي كلمة الإخلاص ، هي دين محمد ﷺ ، هي ملة إبراهيم . وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تبين معنى الفطرة من جهة ، وتبين ضرورة ومسيس الحاجة إلى المحافظة عليها ، وأن المحافظة على الفطرة تحتاج إلى تعاهد يومي ؛ بل تحتاج مبادرة في صبيحة كل يوم أن يستذكر

الإنسان الفطرة ، لا يكفي في موضوع الفطرة أن نجلس يوماً نتذاكر أهميتها وعظيم شأنها وضرورة الحاجة إليها بل لابد من استذكار يومي لها وعناية مستمرة دائمة بها كما يربينا على ذلك هذا الذكر العظيم الثابت عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه .

إذاً عوامل صرف الناس عن الفطرة ليس الأبوان فقط ، وذِكر الأبوين في هذا الحديث لكون ذلك هو الأغلب ، وإلا الأخوال والأعمام والقرابة والجيران والأصدقاء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ)) ؛ فالخليل إذا كان فاسداً منحرف الفطرة يحرف من يخالِله ، وسليم الفطرة سليم الدين لا يُنصح بمجالسة من كان منحرفاً لأنه يؤثر عليه .

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ إِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

يؤثّر القرين في قرينه ، ولهذا قال الحسن : "ليس للمرء أن يمشي مع من شاء" ، ولهذا أيضا يقولون : "الصاحب ساحب" لأنه يؤثر في صاحبه. وإذا كان القرين الفاسد يشكِّل خطورة بالغة على قرينه في حرْفه عن فطره فماذا يقال في القنوات الفضائية والشبكات العنكبوتية التي يجلس أمامها بعض الناس وبعض الشباب وبعض الشابات الأوقات الطوال!! وهي تحمل صنوف الفساد وأنواع الشر ثم يجلس أمامها بدون ضابط شرعي وبدون علم يزَع وبدون دين قوي يردع ثم يدخل في مواقع الشبهات ويدخل في مواقع الشهوات وفي الوقت نفسه يريد لنفسه سلامة!!

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ إِيّاكَ إِيّاكَ أَنْ تَبتَلَّ بِالْمَاءِ

لا يمكن لمن يمشي في الوحل ويسير فيه ويريد لنفسه سلامةً ونقاءً !! هذه المخاطرات التي تحصل الآن هي من الروافد والعوامل المخلخلة لفطَر الناس والمزعزعة لإيمانهم والمفسدة لأديانهم والمبدِّلة لأخلاقهم وآدابهم ؛ ولهذا الفطرة تحتاج إلى رعاية وإلى عناية وإلى حفظ حتى تبقى سليمةً من التغيّر والتبدّل والانحراف .

فعندما نقرأ هذا الحديث ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ**)) لا يقف الإنسان موقفاً خاطئاً في فهمه للحديث ويقول : "الحمد لله أنا في بيت أبواي مسلمان مصليان محافظان يدعوان الله ، وأنا لو مارست هذه الأمور أو وقفت لن تؤثر عليّ لأنني في أبوين مسلميْن ففطرتي لن تتبدل" ؛ هذا فهم مغلوط للحديث ، فذكر الأبوين هنا لأنه الأغلب ، وإلا كم من انحرافٍ حصل لأناس ولدوا بين أبوين مسلمين صالحين ، ومن الشواهد على ذلك في القرآن ابن نوح عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[هود:٤٦] ؛ ابن نوح نشأ عند نوح عليه السلام ، والانحراف الذي حصل لفطرته جاءه من طريق آخر ؛ إما من طريق أمه الكافرة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[التحريم:١٠]

، أو من طريق مجتمعه الذي هو نشأ فيه ، لكن والده ليس نبياً فقط بل من أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعلى رسل الله أجمعين .

فالفطرة تَبدُّلها وتغيُّرها قد يكون من الأبوين هو الغالب ، وقد يكون من طرق أخرى وهي تحتاج إلى رعاية متواصلة وعناية بها مستمرة في كل يوم ، ويرشد إلى ضرورة هذه العناية المتواصلة الذكر والدعاء الذي أشرت إليه والذي يستحب للمسلم صبيحة كل يوم أن يأتي به ، إتيانه به تجديد للفطرة وتذكير للنفس بها وضرورة المحافظة عليها ورعايتها وحفظها من التبدل والتغير .

قال: ((**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**)) ؛ هذا ضرْب مثال لتوضيح الأمر ، وبالمثال –كما يقولون– يتضح المقال ، والأمثلة تُضرب لتبيين المعاني وجعلها بمثابة الأمور المحسوسة المشاهدة الملموسة ، فولادة الإنسان على الفطرة ثم تغيّره عنها وانحرافه هذا المعنى يوضحه هذا المثال ؛ بحيث تقرأ المثال وكأنك تنظر إلى المعنى الذي يوضَّح لك في هذا الحديث.

قال: ((**كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ**)) ؛ تُنتَج : أي تولد البهيمة .

((**بَهِيمَةً جَمْعَاءَ**)) يعني مجتمعة الأطراف مكتملة الأطراف ، عندما تراها للتو مولودة لا ترى فيها أذناً مقطوعة ولا يداً مقطوعة ولا ذنَباً مقطوعاً ولا عيناً مفقوعة إلى غير ذلك ، ترى أطرافها سليمة أعضائها سليمة ، ثم فيما بعد إذا رأيت في أذنها قطع أو قدمها مبتورة أو ذنبها مقطوع أو نحو ذلك هل هذا أمر وُلدت عليه أم أنه طارئ وله سبب وُجد به ؟

قال هنا في الحديث: ((**حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**)) يعني أنتم الذين يحصل منكم هذا الذي يكون فيها من قطع أذن أو طرف أو قدم أو ذنب أو غير ذلك وإلا هي تولد سليمة .

فهذا مثال ضربه عليه الصلاة والسلام لتوضيح هذا المعنى ، فالمولود يولد على الفطرة أي مجتمِع ليس فيه انحراف ، الانحراف لا يولد معه ؛ سواءً من الانحراف الانحراف العقدي أو كذلك الانحراف الأخلاقي هذا لا يولد مع الإنسان ؛ الانحراف العقدي لا يولد مع الإنسان ، والانحراف الأخلاقي لا يولد مع الإنسان. للتوضيح أقول : الكذب ، الخيانة ، الغش ، التدليس ، الظلم ؛كل هذه لا تولد مع الإنسان، وانظر في أكبر ظالم حي أو مات لم يولد ظلمه معه ، مهما بلغ ظلمه ومهما بلغ غشه ومهما بلغ كذبه هذا كله لم يولد معه ، وُلد على الفطرة ، وُلد لا يعرف كذباً ولا يعرف غشاً ولا يعرف ظلماً ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ، وهذه الأشياء كلها توجد بعد ، لم تولد معه ، أكابر الظلمة أكابر الفسقة أكابر الكذابين أكابر الغشاشين كل هؤلاء على مد التاريخ ليس منهم واحد وُلدت معه هذه الأشياء بل هي طارئة تطرأ على الإنسان ، ولهذا النبي ﷺ رعى فطر الناس والأطفال حتى في هذه الجوانب ، وجاء عنه النهي ﷺ أن يقال للطفل تعال خذ ولا تعطيه شيء ، وهذه يفعلها كثير من الناس ؛ يريد أن يقبِّل طفلاً أو يداعب طفلاً صغيراً عمره سنة أو سنتين يقبض يده ويقول "تعال خذ" يوهمه أن في بيده

حلوى مثلا أو لعبة ، ويأتي هذا الصغير يريد أن يأخذ ثم يفتح اليد ولا يرى فيها شيئا ، لماذا نهى النبي ﷺ عن ذلك ؟ لأن هذا العمل يحرف فطرة الطفل ويدخل عليها الكذب ، الكذب لم يولد مع الطفل ، الذي ولد معه الصدق ، الذي ولد معه الوفاء ، الذي ولد معه الأمانة ، الذي ولد معه العدل ، وهذه أشياء طارئة وتوجد فيه، الآن عندما ترى طفل ثلاث سنوات أو أربع سنوات أو خمس سنوات – وهذا يوجد أحياناً – وتجده كثير الكذب أو يغش هذه لم تولد معه ، مع أن مدة عمره قصيرة وكذبه كثير ! هذا الكذب الذي عنده لم يولد معه ، فتِّش وترى السبب ؛ إما أب أو أم أو أخت أو خال أو عم أو جار أدخَلوا عليه .

ويعظم انحراف الصغير عندما يزداد تعلقه بالكبير وحبه له ، لأن هذا يفتح له باب القدوة ، فإذا كان والده يكرمه ويحبه ويحسن إليه ثم يرى في والده أخلاقيات فاسدة يتقبلها بسرعة ويأخذها بسرعة عن والده ، وأي خطأ يكون عليه والده يجد له مبررات ، قرأت مرة –وآلمني كثيراً– عن أحد الأطفال رأى لوحة فيها تحذير من الدخان «الدخان داء قاتل يفضي بصاحبه إلى الموت» أو عبارة نحو هذه العبارة ونظر إلى اللوحة ووالده من المدخنين بشراهة ، وهنا وصْفٌ للدخان بأنه داء قاتل يفضي بصاحبه إلى الموت ووالده يدخن بشراهة فقرأ اللوحة وقال : "لكن والدي يدخِّن كويس" ، هذه أشياء تنشأ مغالطات في النفس وتغيرات في داخل الإنسان ، ثم أيضا تحوُّل في المقاييس ووزن الأمور على وفق ما نشأ عليه الإنسان في المجتمع الذي وُجد فيه أو بين الأبوين ، ولهذا عظُمت المسئولية على الأبوين تجاه الأبناء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام مؤكدا هذا الأمر : ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ)) هذه مسئولية ، ومعنى مسئولية : أنه سيقف أمام الله ﷻ ويسأله ، وفي القرآن قال ﷻ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[التحريم:٦] . حِفظ فطَر هؤلاء الصغار وإبعادها عما يلوثها هذه مسئولية عظيمة ، أحيانا يأتي بعض الآباء من باب التوسعة على الأبناء والترفيه إلى غير ذلك من المعاني ويُدخل عليهم أشياء تفسد فطرهم وتجتالهم عن دينهم ثم ينشأ في أبناءه أخلاقيات وعقائد وأنواع من الفساد وهو الذي زرعها لهم بما جلبه إليهم ، وهناك وعيد شديد ثابت عن النبي ﷺ في حق من مات وهو غاش لرعيته ؛ لم ينصح لهم ، لم يجهد لهم في إصلاحهم في إبعادهم عن الانحراف ، فهذه مسألة عظيمة جداً .

وهذا الحديث هو من الأحاديث العظيمة التي تعين الإنسان على موضوع هذا الباب؛ وهو إقامة الوجه للدين ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ لا يتم ذلك إلا بحفظ هذه الفطرة ورعايتها وصيانتها وإبعادها عن كل ما يحرفها .

والعلماء رحمهم الله أخذوا من هذا الحديث فائدة عظيمة جداً وأيضا مُفرِحة مبهِجة في الوقت نفسه للآباء وللمربيين وللدعاة وهي : أن التربية على الإسلام هي بناءٌ على أصل موجود ؛ الذي يربي أولاده على الإسلام يبني على أصل موجود ، أما الذي يحرف في تربية أبناءه عن الإسلام هذا ينقلهم إلى شيء لا أصل له موجود ،

ولهذا قبول الطفل الذي وُلد على الفطرة للصدق ، للوفاء ، للأمانة ، لحُسن المعاملة ، للأخلاق الكريمة يقبلها بارتياح لأنها هي أشياء مفطور عليها ، أشياء مجبول عليها ، قبوله للعقائد الصحيحة للإيمان الصحيح هذه أشياء جُبل عليها ، عندما يُزرع فيه عقيدة فاسدة أو خُلقاً فاسداً يبدأ القلب في مرحلة صراع لأن هذا شيء يصادم فطرته ، فيبقى في مرحلة صراع ؛ فيه عوامل تدفع للانحراف وفيه أصول تمنعه منه ، وهو لأيهما غلب ، قد يكتب الله ﷻ له حفظاً لفطرته ، قد يكتب الله له من يحسن تربيته لتبقى فطرته سليمة ، قد يقيّض الله ﷻ له أبواباً من الهداية والصلاح والاستقامة ، وقد يبتلى بعوامل شديدة متواصلة تحرفه عن هذه الفطرة . ولهذا هذا أمرٌ ينبغي أن يُعلم وهو : أن التربية على الإسلام ليس حشراً لأمور تصادم أصل الإنسان، وإنما هو بناءٌ على أصول قائمة في الإنسان وثابتة فيه ، أما حرْف الإنسان عن الفطرة إلى عقيدة فاسدة أو إلى أخلاق فاسدة أو نحو ذلك هذا نقلٌ له عن شيء لم يُجبل عليه ولم يفطر عليه . فهذا يستفاد منه فائدة –كما قلت – أن التربية على الإسلام ليست شاقة .

وأيضا أفيدكم في هذا : أن من يربون أبناءهم على العقائد الباطلة يحتاجون إلى أنواع من الكذب حتى يضطر هذا المولود الذي عندهم إلى التحول ، مثلاً في بعض المذاهب وبعض الأديان تجده يسرق من طفله شيئاً ويخفيه عنه ويظل يبكي ويبقى فترة حزيناً ما وجده ثم يأتيه به ويقول من جاء به ؟ يقول هذا فلان جاء به ؛ حتى يغرس فيه ماذا ؟ يقول هذا عيسى هو الذي جاء لك به ، وعيسى هو الذي دائماً ينقذنا ، ثم يسرق له شيء آخر وهكذا. وأيضا فيمن ينتسبون إلى الإسلام ويعظّمون أشخاصاً باسم الولاية أو اسم الإمامة أو نحو ذلك ويعطونهم من خصائص الله ويريدون ربط صغارهم بهذا يكذبون مثل ذلك . ثم إذا أرادوا أيضا حشر نفوس هؤلاء الصغار ضد بعض الأخيار وضد بعض الأفاضل يسرق منه الشيء فيظل الطفل يبكي ، فيقولون له على سبيل المثال هذا أبو بكر هو الذي سرق ، هو الذي يسرق ودائما يعتدي على الناس ، فينشأ وليس في الدنيا أبغض عليه منه بهذه الطريقة .

لماذا يستعملون هذه الأساليب ؟ ولماذا يضطرون إلى هذه الأساليب ؟ لأن فيه حرْف عن الفطرة ، والحرف يحتاج إلى مثل هذه الروافد ، أما الذي يبني على أخلاقيات الإسلام وعلى آداب الإسلام وعلى عقائد الإسلام الصحيحة فهو معافى من ذلك كله ؛ لأنك تبني على أصول قائمة وأسس ثابتة ، والعمل الذي يقوم به ليس بناء من الأساس وإنما تكميل لشيء قائم .

فهذا أمر –حقيقة– مفرح جداً لمن أكرمه الله ﷻ وحباه ، يعني يكفي في الطفل أن لا يُكذَب عنده؛ يبقى صادقا، أن لا يُخلف الوعد عنده؛ يبقى أميناً ، فإذا كنت تريد أن تربيه على الأمانة وذكرت له بعض الأحاديث هذا تكميل ، لكن الذي يحرف الابن عن هذه المعاني هذا هو الذي يحتاج إلى تلك الأمور وتلك المغالطات وذلك الكذب إلى غير ذلك ، فهذه من النعم العظيمة والفوائد الجليلة التي تستفاد من هذا الحديث .

((**ثم قرأ أبو هريرة** ﷺ قول الله ﷻ ﴿ **فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾)) ؛ وهذا جزء من الآية التي هي عنوان هذا الباب ، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ ؛ هذا السياق بتمامه في سورة الروم تأملوه فإن فيه فائدة عظيمة ، بل ذكرٌ لركائز عظيمة جداً للسلامة من التفرق والانحراف ، ولا أطيل الكلام في تفصيلها لكن أشير إليها إجمالاً ؛ السلامة من التفرق يكون بأمور ذُكرت في هذا السياق المبارك العظيم :

- الأمر الأول : إقامة الوجه للدين بالاستسلام لله وحُسن التوجه إليه وقصده ﷻ بالعمل وإخلاص الدين له ﷻ.
- الأمر الثاني : أن يكون الإنسان معوِّدًا نفسه دائماً وأبداً على الميل والانحراف والتجافي عن الباطل ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ فيكون بهذه الصفة متجافي متباعد، كلما يمر عليه باطل أو انحراف أو زيغ يميل عنه ويبتعد عنه ولا يقصده .
- الأمر الثالث : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ تعاهد العلم والعناية به والعناية بالتعلم والفقه في الدين ، فهذا من أعظم الأمور التي يُحفظ بسببها العبد بإذن الله ﷻ ، ولا يترك الجهل يلعب به ويعبث به في أودية الباطل والضلال ؛ بل يتفقه ويتعلم .
- الأمر الرابع : الإنابة إلى الله ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ ؛ والإنابة هي الرجوع إلى الله ، والإنسان كثير الخطأ ، فيه الخطأ ، فيه التقصير ((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ)) ، فيعوِّد نفسه دائماً على الإنابة وهي الرجوع إلى الله.
- الأمر الخامس : تقوى الله ﷻ ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ ؛ في السر والعلانية ، في الغيب والشهادة ، بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر ، ((اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ)) .
- الأمر السادس : إقام الصلاة ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ، والصلاة إقامتها كما أمر الله من أعظم أسباب حفظ العبد وسلامته ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ؛ وهي من أعظم الأسبابل حفظ العبد عن الانحراف والضياع ولاسيما إذا أقبل على الله في صلاته بخشوع وصدق مع الله تبارك وتعالى .
- الأمر السابع : البعد عن الشرك والبراءة من المشركين ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فبهذه الأمور يسلم الإنسان من التفرق ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

وبهذا السياق المبارك تعلم أن اجتماع كلمة المسلمين واتحاد صفهم لا يكون إلا على هذه الأصول ، عندما تجتمع

فيهم هذه الأصول يتحقق فيهم الاجتماع ، وإذا أخلّوا بهذه الأصول تفكك من اجتماعهم بحسب إخلالهم بها ، ولهذا كم نحتاج إلى أن نقرأ مثل هذا السياق المبارك ونجاهد أنفسنا على تتميمه وتكميله وجبر ما يكون فينا من نقص أو خلل فيه أو في شيء من جوانبه ، ويمكن أيضا مطالعة كلام أهل العلم في كتب التفسير لهذه الآية ونظائرها مما جاء في كتاب الله ﷻ .

ثم بعد ذلك انتقل المصنف رحمه الله إلى حديث حذيفة الطويل ؛ أيضا في تقرير معنى إقامة الوجه للدين وكيف يسلَم الإنسان ، مع أن أمامه في حياته تغيرات ومتغيرات وأمور وفتن متنوعة ، والمصنف رحمه الله يريد أن ينبه بذلك أن إقامة الوجه للدين يحتاج إلى مجاهدة مستمرة من العبد ليسلم مما سيمُرّ به من الصواد والصوارف التي تحرف الإنسان عن دينه والشرور التي يلقاها ، وقد قيل «ليس العجب ممن هلك كيف هلك ولكن العجب ممن نجا كيف نجا» ، الصوارف من حول الإنسان كثيرة جدا فالعجب في نجاة الإنسان من هذه المهلكات ، فهذا باب إقامة الوجه للدين حنيفا يحتاج إلى أمور كثيرة جدا يعتني بها العبد يحفظها ويحافظ عليها حتى يسلم له دينه ، وسيأتي في هذا تفاصيل نافعة ومفيدة جدا في الحديث الآتي حديث حذيفة .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

الدرس الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وعن حُذَيْفَةَ ﷺ قال : كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأنا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟ قَالَ «نَعَمْ» فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ؟قَالَ «نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ». قُلْتُ وَمَا دَخَنُهُ ؟ قَالَ «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ». قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ «نَعَمْ فِتْنَةٌ عَمْيَاء ودُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ «قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا

وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا». قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَأمرُنِي إِنْ أدركتُ ذَلِكَ ؟ قَالَ «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». فَقُلْتُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُأتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» أخرجاه ، وزاد مسلم : ((ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ ؛ فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عنه وِزْرُهُ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ ، قَالَ : قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ)) .

****

أورد المصنف رحمه الله حديث حذيفة بن اليمان المخرّج في الصحيحين –صحيحي البخاري ومسلم رحمهما الله– في هذا الباب : «باب قول الله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾[الروم:٣٠]» ؛ لأن هذا الحديث العظيم حديث حذيفة فيه بيان ما ينبغي أن يكون عليه من يريد إقامة وجهه للدين حنيفا من حذر وبعد عن الشرور والهلكات والأمور الصارفات عن دين الله ﷻ ، وأنه عليه أن يعلم أن أمامه في هذه الحياة فتنٌ صارفة وأهواء جارفة لابد أن يكون على حذر منها وحَيْطةٍ من الوقوع فيها ؛ ليسلَم له دينه ، وليتم له إقامة وجهه للدين حنيفاً، فكما أن الإسلام حِفظٌ للأوامر والطاعات فإنه كذلك بُعدٌ عن النواهي والأهواء والشبهات وحفظٌ لدين الله ﷻ ، ولهذا ساق المصنف رحمه الله هنا حديث حذيفة العظيم ليبين ما ينبغي أن يكون عليه من أراد لنفسه إقامة الوجه الدين حنيفاً بلا زيغ ولا انحراف .

وحديث حذيفة فيه آية من آيات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه أخبر فيه بأمور أعلمه الله ﷻ بها تكون في المستقبل مما يتعلق بأحوال أمته بعده؛ حيث ذكر عليه الصلاة والسلام أطواراً تمرُّ بها الأمة ، طوراً من بعد طور. أمة محمد عليه الصلاة والسلام بعد أن أنقذهم الله ﷻ من الجاهلية وخلّصهم من عمايتها وغوايتها وضلالها وغيّها وظُلمها وظلامها فأصبحت أمةً على خير يذكر هنا ﷺ أطواراً للأمة ستمُر بها ، وهو ﷺ لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:٤] ، ثم يذكر عليه الصلاة والسلام ماذا ينبغي أن يكون عليه المسلم الذي يريد لنفسه إقامة الوجه للدين بدون زيغ وانحراف؟ يبين عليه الصلاة والسلام ماذا ينبغي أن يكون عليه الإنسان عندما يمر به طور من تلك الأطوار التي أشار إليها في الحديث . وهو حديث عظيم جداً وفيه فوائد كبار وتأصيلات عظام وتقعيدات جليلة يحتاج إليها المسلم حاجة ماسة .

يقول حذيفة ﷺ : ((**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأنا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**))؛ هذه الكلمة التي قالها حذيفة ﷺ في صدر هذا الحديث هي توطئة منه ﷺ للسؤالات التي ذكرها وذكر أنه تقدم بها إلى رسول الله ﷺ ، سيمُر عليك في سؤالاته «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ ؟» فلِمَ هذا السؤال؟ هو جاء في مقدمة هذا الحديث بتوطئة يبين فيها سبب تلك السؤالات ، لماذا كان يسأل النبي ﷺ تلك السؤالات ؟

سؤالات عديدة : «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟» ، ثم يقول: «هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟» ، ثم يسأل «هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟» ، ثم يسأل «ثُمَّ مَاذَا ؟» ؛ أسئلة كانت متوالية عظيمة جداً نافعة ترتب عليها خيرٌ عظيم لكنه ﷺ وطَّأ لتلك الأسئلة بقوله : «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه**» وأصبحت كلمته هذه قاعدةً علمية عظيمة الشأن جليلة القدر يحتاج إليها كل مسلم ، أعني قولهﷺ «كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه» فهي قاعدة مهمة في باب العلوم والفقه في دين الله ﷻ .

«**كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه**» ؛ منبّهاً بذلك إلى أصل عظيم في فقه الشريعة ومعرفة الدين ألا وهو : أن المسلم لا يكفيه أن يعرف الفرائض والواجبات والرغائب والمستحبات ؛ بل لابد أن يكون على معرفة بالمحرمات ولو إجمالاً من أجل اتقائها ، رب العالمين حرّم في كتابه في آيات كثيرة الشرك ، فمن لم يعرف الشرك كيف يتقيه؟! ، حرّم البدع ونهى عنها وحذر منها ، فمن لم يعرفها كيف يتقيها؟! حرّم الكبائر فمن لم يعرفها كيف يتقيها ؟! وقد قيل : «كيف يتقي من لا يدري ما يَتَّقي» ؛ لابد من معرفة هذه الأشياء للحذر منها ، ولهذا علل ﷺ السر في هذه المعرفة قال : ((وَكنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)) ؛ فيسأل عن الشر ليعرفه ويعرف حقيقته ويعرف صفته ليكون منه على حذر .

وهذا فيه تنبيه أن من لا يعرف الشر قد يقع فيه من حيث لا يشعر ، بل وقع أقوامٌ في شرور كثيرة وفي شركيات صريحة وفي بدع مضلة وهم في قرارة نفوسهم يظنون أنهم على خير وأنهم على هدى وإيمان وصلاح ، فهو يقول : ((كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه)) يعني خوفاً من أن أقع فيه . والقائل لهذه الكلمة صحابي جليل ومن علماء الأمة ومن الفقهاء ومن الأعيان؛ يقول : ((كنت أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَه)) يخاف من الشر ، فإذا كان هذا الصحابي الجليل الذي هو في زمن الخيرية وفي صدر الأمة يخاف ويسأل فكيف بالأزمان المتأخرة التي تتكاثر فيها الفتن والشرور والبدع والأهواء والانحرافات والزيغ عن دين الله!! فلا شك أن الأمر أعظم في حق من أراد لنفسه إقامة وجهه للدين ، أما الذي لا يبالي بدينه ويخاطر بإيمانه فهذا شأنه آخر ، لكن الكلام في شأن من يريد إقامة وجهه للدين حنيفاً ، فهذا يتطلب معرفة للشر من أجل أن يُتقى ، كما قيل :

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ وَلَكِنْ لِتَوَقِّيهِ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الخَيْرَ منَ الشَّرِّ يقعْ فيهِ

الذي لا يميز بين خير وشر يقع في الشر من حيث لا يشعر ، ولهذا احتاج الإنسان أن يعرف الشر ولو إجمالاً حتى يكون منه على حذر ، والله ﷻ يقول في القرآن : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥] ؛ يعني تكون سبيل المجرمين واضحة ، ما فائدة وضوح سبيل المجرمين للمسلم؟ حتى يحذر منهم ومن سبيلهم ، أما الذي لم تستبن له سبيل المجرمين يذهب إليهم ومعهم وهو لا يشعر، فاستبانة سبيل المجرمين للإنسان، استبانة سبيل الضالين ، استبانة سبيل المنحرفين الزائغين؛ هذا يجعله في حيْطة وحذر من أن يقع في شيء من ذلك. ولهذا كانت كلمة حذيفة ﷺ قاعدةً عظيمة وتأصيلاً نافعاً في هذا الباب .

((**كَانَ أصحاب رسول الله ﷺ يَسْأَلُونَه عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**)) ؛ الشر يدرك من لا يعرفه ، أما الذي يعرف الشر ويعرف أنه شر ويعرف صفة الشر وحقيقته ويجاهد نفسه على البعد منه ويسأل الله أن يعيذه منه فهذا يكون في عافية ، والنبي ﷺكان في تعوذاته يتعوذ بالله من الشرور ؛ شر النفس ، وشر الشيطان ، وشر كل دآبة آخذ بناصيتها رب العالمين ، فمن كان على علمٍ بها مستعيذاً بالله مجانباً محتاطاً لدينه يسلم بإذنه ﷻ ، أما الذي يخاطر بدينه ولا يعرف الشر فهذا دينه على خطر ، قد يدركه الشر بل تدركه شرور كثيرة يقع فيها ويتضمّخ في أنواعٍ من الباطل والضلال .

قال: ((**فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ؟**))؛ حذيفة ﷺ يتحدث هنا مغتبطاً بنعمة الإسلام ومنَّة الهداية إلى هذا الدين فرحاً بها ويريد لها بقاءً وسلامةً ، ولما سأل هنا «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ ؟» لم يسأل سؤالاً فارغاً من المعاني أو المقاصد ؛ بل له مقصد عظيم جداً وهو : إذا كان هناك شر قادم أو آتي ؛ حتى نحذر منه ونكون في حيطة وفي مجاهدة لأنفسنا في حفظ الدين وإقامته والبعد عن الزيغ والانحراف ، يسأل «فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٌّ ؟» ،يوضح سر السؤال وسببه قوله قبل قليل ((مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)) هو يسأل حتى يعرف إذا كان فيه أشياء يحتاط ويحذر منها .

قال : ((**إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ**)) ؛ يصف الحالة التي كان الناس عليها قبل الإسلام ، حيث كانوا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء وشرور لا حد لها . أما الجاهلية ؛ فكان في الناس العقائد الباطلة ، والنِّحل الفاسدة ، والأهواء الزائغة ، والمعاملات الفاسدة ، ولا تسأل عن بابٍ من أبواب أحوال الناس وحياتهم إلا وتراه في جاهلية، وكانت جاهليةً مطبقة ؛ ليست في بقعة من الأرض دون بقعة أخرى بل جاهلية خيمت على الأرض بأسْرها ، حتى إن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح: ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ)) جاهلية خيَّمت على الأرض بكل أرجائها وجميع أطرافها غطت على الأرض ، ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) أفذاذ قلائل جداً من أهل الكتاب بقيت فطَرهم لم تتبدل ومستمسكين بالكتب السابقة ، ((بَقَايَا)) وإلا الجاهلية خيمت على الأرض ، ولا تسأل عن ألوان الفساد في عقائدهم وعباداتهم ؛ فساد في البيوع والمعاملات وما يتعلق بالأموال ، فساد فيما يتعلق بالأعراض والفروج والأنكحة ، فساد من جميع الجهات ، انتهاب ، قتل للأنفس ، إراقة للدماء ، انتهاك للأعراض ، استباحة للمحرمات ، جاهلية جهلاء أطبقت على الأرض ، وكان مع الجاهلية شر؛ أي شراسة في الناس وهي وليدة الجاهلية ، شراسة وفظاظة ورعونة وغلظة وعدوان وبغي وقتل ونهب وسلب . فاجتمع لهم هذان الأمران: الجاهلية والشر ؛ الجاهلية : انحلال في العقائد والعبادات . والشر : يعيش الناس حياة خوف وهلع لا يأمن الواحد على ماله ولا يأمن على عرضه ولا يأمن على نفسه، اختلال في جميع الأحوال .

فيقول حذيفة مغتبطاً : ((**كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ**)) ؛ وقوله «فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ» فيه أولاً الاعتراف بالنعمة والمنعِم ؛ النعمة: الإسلام ، والمنعِم: رب العالمين ، ((فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ)) ففيه اعتراف بالنعمة التي هي نعمة الإسلام أعظم النعم ، وفيه الاعتراف بالمنعِم المتفضل وهو رب العالمين، قال ﷻ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات:٧-٨] ؛ فالإسلام فضلٌ من الله ونعمةٌ من الله ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢٩] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾[النور:٢١] ؛ فهي منّته ﷻ . الصحابة ﷺ كما في صحيح البخاري كانوا يقولون : ((لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا)) يعني لولا أن منّ الله علينا بهذا الدين وهدانا إليه وشرح صدورنا لقبوله لما كان ذلك ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الزمر:٢٢] ؛ فهي منة الله ﷻ وهو الهادي ﷻ .

فيقول حذيفة مغتبطاً : ((**فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ**)) ، والمراد بالخير هنا : الإسلام ، وهنا أيضا فائدة : وهي أن حيازة الناس للخير وتحصيلهم له إنما يكون من جهة الإسلام ؛ بمعنى : أنه كلما عظم حظ الإنسان من الإسلام عظم حظه من الخير ، وكلما اجتهد الناس في حفظ الإسلام والمحافظة عليه والدعوة إليه والنهي عما يخالفه أو ينقِصه بقي لهم من الخيرية بحسب ذلك ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠] ؛ فالخيرية مرتبطة بالإسلام ؛ فعلاً له، وتحقيقاً ، ودعوةً ، وأمراً ، ونهياً وإصلاحاً ؛ فكلما كانت الأمة محافظةً عليه عظم حظها من الخيرية بذلك.

قال: ((**فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**)) ؛ يعني هل سينتقل حال الناس بعد هذا الخير الذي عم وانتشر ؟ هل سيكون هناك شر بعده ؟

فقال عليه الصلاة و السلام : ((**نَعَمْ**)) ؛ يعني سيكون هناك شر بعد هذا الخير . وهذا فيه تنبيه للناس أن الإنسان إذا كان يعيش حياة آمنة بالإيمان والإسلام والطاعة والمحافظة على عبادة الله هو وأولاده وأهله قد يفجأه في حياته امتحان بحيث أن شراً يحيط ، ، وكثير من الناس عندما يأتي الشر يتساقطون في الامتحان ، والشر امتحان للإنسان وابتلاء له فكثير من الناس يسقط ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥] ابتلاء

وامتحانا، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧] ، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [محمد:٣١] ؛ فيُبتلى الإنسان امتحاناً واختباراً وتمحيصاً ، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢] فيه امتحان وفيه افتتان فيه اختبار ، فهذا الشر يكون امتحاناً وابتلاء من الله ﷻ للناس . وحذيفة سأل للسبب الذي ذكره قريباً : ((مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)) ؛ يعني حتى يحذر ويحتاط ، من ذلكم أنك تسأل الله ﷻ أن يعيذك من الشر ، هذه المعرفة تحرك فيك تعوذاً "اللهم أعذنا من الشر ، اللهم سلِّمنا ، اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا" ، لما يقال لك مثلاً أن عدواً متوقع مجيئه تجد نفسك مجتهد في إصلاح نفسك وفي تهيئة أمرك ودعاء ربك والإلحاح عليه.

((**فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ : نَعَمْ**)) هذا طوْر ، الطور الأول: الخير الذي عم وانتشر في حياة النبي ﷺ، ثم يأتي طور وهو الشر ؛ يعني يكثر الشر ويفشو وينتشر ويكثر دعاته وتتبنَّاه دول وجهات وأفراد ، ينتشر ويطغى على كثير من الناس ، فأشار عليه الصلاة والسلام إلى أن بعد هذا الخير يوجد شر ، لما سأله «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ : نَعَمْ».

هنا أنبه : أن الشر المعني هنا ليس شراً مطبِقاً تماماً بمعنى أنها عودة إلى الجاهلية الأولى ، فهذا لا يكون ؛ الجاهلية المطبقة انتهت بالإسلام ، وقد قال ﷺ : ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ)) ، فالحق باقٍ وله أعوان وله أنصار ، محفوظ بحفظ الله ﷻ ، ولهذا لا يصح للإنسان في وقت من الأوقات أن يقنِّط الناس ويئسهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح ((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ)) وفي رواية ((فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ)) ؛ لأنه إذا قال : "هلك الناس ، ما عاد بقي من خير، الشر أطبق علينا من كل جانب، ما بقي في الناس خير" ؛ إذا قال مثل هذه الكلمات ماذا يُحدِث ؟ قال ((أَهْلَكَهُمْ)) لأنه ييئسهم ، يقنّطهم ، يُضعِف عزائمهم ، يُفتِر هممهم ؛ وهذا باطل لا يجوز ، لأنه إذا كان بهذه الصفة يكون هو نفسه القنوط مسيطر عليه ويرى أن الأمر انتهى ، فهو في نفسه هالك وأيضاً مهلِك للآخرين . وهذا فيه تنبيه: أن الواجب على المسلم أن لا يسيطر عليه يأسٌ في أي مرحلة وفي أي وقت ، بل يكون دائماً متفائل ومستبشر وطامع في رحمة الله ﷻ وفضله ومقبِل ؛ حتى وإن تكاثرت الشرور وأحاطت وتعددت وتنوعت وكثر دعاتها لا يقنط ، بل يكون دائما مستبشراً متفائلاً طامعاً عاملاً ناصحاً داعياً يؤدي عمله ، أما إذا وصل إلى مرحلة يقول فيها : "هلك الناس ، ما بقي خير" أو نحو هذه الكلمات أو ما يؤدي معناها ؛ فهذا يُهلِك نفسه ويهلِك غيره ، ويكون بذلك قد سيطر عليه هو القنوط ، وبدأ ينشر في الناس قنوطاً ويئساً ، وهذا شر والعياذ بالله . فهذا أمر ينبغي أن يتنبه له المسلم وأن يحذر .

وبعض الدعاة أحياناً لا يوفق في طرحه ؛ عندما يبدأ يسرِد للناس في خطب أو في محاضرات قوائم بأنواع الشرور وأماكنها ويسرد لهم سرداً حتى يكون من أمامه الفائدة التي حصّلوها إحباط؛ " الشر من كل جانب ، ولا حول

لنا ولا قوة " ، ويدبّ لقلوبهم يأس وقنوط ، وتُذكر أرقام مهيلة ومخيفة تضر بالناس ؛ فهذا ليس من النصح في دين الله ﷻ ، النصيحة تكون ببيان الحرام والتحذير منه ، ويمكن أن يشار إلى وجوده ، يشار إلى وجود دعاة له ، ويقال للناس الخير باقي ولله الحمد أهله موجودون والناس في خير ، وإذا ذهبتم إلى أماكن خير سترون الخير وترون أهله ، ومن يذهب إلى أماكن الشر يرى الشر ويرى أهله ، فيُدَل الناس على الخير وعلى أماكنه وعلى أهله ، أما إذا ذُكر للإنسان فقط دعاة الشر وأهل الشر وأنواع الشر بالأرقام وأُهمِل جانب الخير هذا من أخطر ما يكون ، والأمر المفروض يكون بالعكس .

قال حذيفة رضي الله عنه ((**فَقُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟**)) ؛ يعني إذا صار حال الناس إلى ذلك الشر فهل يرجعون إلى الخير وهل ينتشر خير بعد الشر الذي وُجد ؟

((**قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**)) ؛ الدخن معروف وهو الكدر والكدورة . يعني فيه خير وفيه أيضاً أشياء تكدر صفوه، والدخن هو في الأصل التعتيم الذي يكون في الجو بسبب الغبار أو الدخان ، وأنت تعلم أن إذا كان الجو فيه دخان أو غبار ثائر يعتِّم عليك الطريق ويُضعِف الرؤية ؛ فكذلك في باب الخير عندما يكون في الخير دخن يكون الأمر بهذه الصفة .

وقوله : ((**فِيهِ دَخَنٌ**)) هذا فيه إشارة إلى أمرين: الأمر الأول يتعلق بقلوب الناس أو قلوب كثير منهم ، من جهة ما قد يكون في القلوب من تكالب على الدنيا أو أحقاد أو حسد أو ضغائن أو نحو ذلك من الأمور؛ هذا دخن. وأيضا من حيث استبانتهم للحق وعلمهم به ومعرفتهم بالطريق والجادة والسنة، فيكون عندهم دراية ، ويكون عند عدد منهم دخن في ذلك وغبش وعدم وضوح ، وربما يدخل عليهم بعض الأعمال التي هي ليست من سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

((**قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**))؛ أنت تتساءل هنا : وما هو هذا الدخن ؟ هذا سؤال –مثل ما يقولون– يطرح نفسه، وطرَحه حذيفة ، حذيفة رضي الله عنه كانت أسئلته عجيبة جداً ، أسئلته أسئلة شخص مغتبط بدينه فرحٌ به مسرور بالخير الذي انتشر وعم وتزايد وكثُر ، يريد هذا الخير يبقى له وللناس فبدأ يسأل أسئلة المشفق الحريص الناصح لنفسه ولغيره ، فهي حقيقة أسئلة عظيمة جداً مباركة طرحها رضي الله عنه وأرضاه وجزاه عنا على هذه الأسئلة خير الجزاء وأعظمه وأوفره .

قال: ((**وَمَا دَخَنُهُ؟**)) ؛ أنظر هذا السؤال العظيم «وما دخنه ؟» .

((**قَالَ : قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)) ؛ هذا معنى «الدخن» . وهنا يشير عليه الصلاة والسلام أن هؤلاء الذين فيهم هذا الدخن عندهم خلل من جهتين؛ الجهة الأولى : مصدر التلقي ، والجهة الثانية: الأعمال التي يقومون بها .

- فمصدر التلقي ؛ قال عليه الصلاة والسلام : ((**يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي**)) فتجد أحدهم إذا استدل يستدل إما بمنام، أو يستدل بتجربة ، أو يستدل بعقله ، أو يستدل بقصة ، أو..أو..الخ من أنواع ما جُعلت مصادر للناس في استدلالاتهم ، فتجده يذكر أعمالاً وعبادات إلى غير ذلك ويستدل عليها بغير السنة .

تَبًّا لِمَنْ نَبَذَ الكِّتابَ وَرَاءَهُ وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الأَخْطَلُ

الكتاب والسنة مهجورة ثم يستدل بأشياء أخرى !! لا يستدل بكلام الله ولا بكلام رسوله ﷺ ، فهذا فساد وانحراف وخلل في مصدر الاستدلال .

- النوع الثاني من الخلل: خلل في العمل ؛ وهو نتيجة للأمر الأول ، من لم يستن بسنة النبي ﷺ اختل عنده العمل ووُجد عنده الانحراف ، ولهذا قال: ((**وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي**)) ؛ غير هديه عليه الصلاة والسلام في عباداته وأعماله ، فترى فيهم البدع ، وترى فيهم الخرافات ، وترى فيهم أنواع من الانحرافات التي هي ليست من هديه عليه الصلاة والسلام ، قد كان ﷺ إذا خطب الناس يوم الجمعة يقول: ((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ،وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) فكان عليه الصلاة والسلام يحذِّر من الضلالات والبدع، ويؤكد على لزوم الحق والهدى وسنته صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((**قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)) ؛ هذا أيضا فيه توضيح للدخن ، الخير الذي فيه دخن إذا نظرت إلى جانب الخير تعرِف ، وإذا نظرت إلى جانب الدخن تُنكر ، ففيه جانب خير ، ليس شراً محضاً ، وإنما خيرٌ فيه دخن ، فأنت تعرف وتنكر ؛ يعني ترى خيراً وترى أعمالاً وترى سنناً وترى صلاحاً استقامةً نصحاً اجتهادا ، وتنكر أيضا ترى مع ذلك كله أموراً تنكرها ، وهذا يكون في الأفراد وفي عموم الناس . يعني تجد أحياناً شخص مقبل على الخير ومقبل على الطاعة ومقبل على العبادة وحريص على الدين لكنك تنكر فيه أشياء ليست من الدين ؛ بدع وخرافات ليست من دين الله ﷻ ، فأنت إذا نظرت إليه من جانب عرفت ، وإذا نظرت إليه من جانب آخر أنكرت، قال: ((**تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)) ؛ تعرف منهم خيراً وتنكر فيهم شراً ومخالفة .

قال: ((**قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)) ؛ هنا الآن لما عرفت هذا الوصف ، الوصف نفسه لهذا الدخن متضمنٌ العلاج ، يعني لو قلت مثلاً : إذا وجد في مراحل الناس وأطوارهم هذه المرحلة وهي أنه يوجد من يستن بغير السنة ويهتدي بغير الهدي وتعرف منه وتنكر؛ ما الحل؟ الحل واضح ، الحل أن يجاهد الإنسان نفسه دائماً وأبداً على لزوم السنة والتمسك بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، ليس هناك مخرج إلا هذا ؛ ولهذا في حديث العرباض بن سارية قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى

اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) ما المخرج ؟ أجاب دون أن يُسأل ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)).

((**قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**))؛ كل هذه الأسئلة المتلاحقة من حذيفة ﷺ أساسها قوله المتقدم «وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي» .

((**قَالَ : نَعَمْ؛ فِتْنَةٌ عَمْيَاء**)) ؛ الفتنة توصف بأنها عمياء لأنه بوجودها غالب الناس لا يبصرون الحق ولا يرونه ، فالفتنة تُعميهم عن الحق ، ولهذا يقال فتنة عمياء صماء ، لأنها تصرف كثير من الناس وتجرفهم وتبعدهم عن الحق والهدى .

((**وَدُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**)) ؛ هؤلاء الذين قال عنهم ﷺ دعاة على أبواب جهنم هل منهم واحد يقول للناس هلُمَّ إلى النار ؟! هل منهم واحد يقول إنني من دعاة جهنم فتعالوا معي إلى جهنم ؟! إذاً ما معنى قوله: ((**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**)) ؟ ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر:٤١] ؛ ما معنى ﴿تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ؟ بيّن قال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾[غافر:٤٢] ، فمعنى قوله ﴿ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ جاء ما يفسره ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ فهذه الدعوة إلى النار، فالذي يدعو إلى الكفر يدعو إلى الشرك يدعو إلى الضلال هو في الحقيقة داعية إلى النار؛ فمعنى قولهﷺ ((**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**)) أي يدعون الناس إليها بدعوتهم إلى أعمالها ، فمن دعا الناس إلى عمل من أعمال جهنم وعمل من الأعمال الموصلة إلى النار فهو داعية على باب جهنم شاء أم أبى.

قال: ((**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**)) ؛ أي من أطاعهم فيما يدعونه إليه قذفوه في النار ، ثم هؤلاء الدعاة على أبواب جهنم عندما يدعون الناس إلى أعمال جهنم هل يدعون الناس إلى هذه الأعمال واصفين لها بأنها أعمال مهلكة أعمال مفضية إلى جهنم مفضية إلى الشر والهلكة ؟ لا ؛ وإنما يصفونها بأوصاف أخرى ويزيّنونها ؛ الشرك يزينونه يقولون : هذا توسل هذا شفاعة ، الربا: يقولون هذه فائدة ، الرشوة : يقولون هذه إكرامية ، الخمور : يقولون هذه مشروبات روحية ، أنواع الفساد : يقولون هذا رقي وتقدم وحضارة ، السنن والفرائض والواجبات بعضهم قال: هذه أغلال ، وبعضهم قال: هذه تعوق الإنسان وتعطله عن مشاركة الناس في ركب الحضارة ، المرأة والأبواب التي تُفتح عليها بالفساد يدخلون من جهة المساواة والعدل ورفع الظلم عن المرأة؛ إلى متى تُظلم المرأة ؟ إلى متى تُهضم حقوقها ؟ إلى متى إلى متى..؟ ويبدأ بعضهم يتجرأ على أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ((مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ)) كيف يقال ناقصة عقل وفي النساء من هي كذا ومن هي كذا !! فيهم الطبيبة والمهندسة ...الخ كيف يقال ناقصات عقل ؟! وبهذا الطريق يدخل دعاة جهنم

على الناس تضييعاً للدين ، وتضييعاً للأخلاق ، وتضييعاً للفضائل ، وكلها تأتي بشعارات براقة : العدل ، المساواة، رفع الظلم ، الحضارة ، الرقي ، التقدم ، أشياء من هذا القبيل حتى يُجرَف الناس ويُصرفون عن دين الله ﷻ ، ومن أكبر ما يدخل دعاة جهنم على الناس فيه من جهة فتنة النساء ، يقول عليه الصلاة والسلام : ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ)) ، ((أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)). وفتنة النساء تدخل في بداية الأمر في فساد الأعراض ثم بعد ذلك فساد العقائد والأديان والانحرافات وضياع الدين . ولهذا ابن القيم رحمه الله في كتابه الطرق الحكمية يقول : «وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمْكِينَ النِّسَاءِ مِنْ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ أَصْلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَشَرٍّ» ، وذكَر عبر التاريخ حوادث وقصص كيف أن الشر يفشو وينتشر ؛ فتأتي دعوات برفع الظلم عن المرأة ويبدؤون ينتقصون الأحاديث ويتكلمون فيها ويطعنون فيها ويقولون على الله وفي الله وفي دين الله ﷻ بغير علم ويحاولون التقوّل على الله ، يقول ﷺ: ((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً)) يطعنون في ذلك ويستدلون استدلالات باطلة في غير بابها ؛ كل ذلك ترويج للضلال وللباطل .

فالنبي عليه الصلاة والسلام ذكر فتنة عمياء ، ودعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها .

قال : ((**يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا**)) ؛ يعني أعطنا صفة هؤلاء . وهذا أيضا فيه فائدة : أن معرفة صفة دعاة الباطل تفيد الإنسان ، كم يحتاج عوام المسلمين أن تعطى لهم صفات لدعاة الباطل ؛ حتى يحذر منهم ومن سماع كلامهم، حتى لا يُدخلوه في أمور وفي ورطات ربما لا يتخلص منها .

((**قَالَ : قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**)) ؛ قال بعض المفسرين : يعني قوم من العرب منا وفينا . وقال بعضهم : منا أي على ملتنا يعني ينطقون ويتكلمون باسم الدين . الكافر عندما يخاطب المسلم تجد المسلم حذِر منه ويخشى على نفسه من آراءه ؛ حتى لو كانت آراءه في ظاهرها له فيها فائدة تجده حذر ويقول يمكن أن يقصد كذا أو يريد كذا ، لكن إذا كان الذي يدعوه من جلدته وينطق بلسانه وبدينه! وبعضهم يبدأ ما يريد أن يقرره من ضلال بآية من القرآن ، يُسمع أحياناً من بعضهم فيما يدعو إليه من ضلال يبدأ بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة:١٠٥] ثم يذكر أمور باطلة ، والعوام مثل ما قال بن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين : «والناس أكثرهم مع ظاهر السكة ليس لهم نقد النقاد» ؛ لا يستطيع العامي ينقد ولا يستطيع أن يميّز، ومن دأب أهل الباطل وطريقتهم في قديم الزمان وحديثه أنهم كما وصفهم رب العالمين بذلك يخلطون الحق بالباطل، يلبسون الحق بالباطل من أجل ترويج الباطل على الناس وإيقاع الناس فيه.

((**قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَأْمُرُنِي إِنْ أدركتُ ذَلِكَ ؟**)) ؛ يعني إذا بلغ الأمر هذا المبلغ ووصل هذا الحال ماذا تأمرني إن أدركت ذلك ؟

((**قَالَ : تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**)) ؛ إذا كان في جماعة وفي إمام إلزم الجماعة والإمام ، ولا يدخل عليك الشيطان في الوقيعة في الأئمة ؛ كأن يقول أحد هذا إمام جور ، أو يقول آخر هذا إمام ظالم ، أو يقول هذا إمام كذا ، إلزم الجماعة والإمام إذا كان يوجد جماعة وإمام ، ولم يشترط عليه الصلاة والسلام لم يقل : الزم جماعة المسلمين وإمامهم إذا كان الإمام عادلاً أو إذا كان غير ظالم" ما اشترط ، قال : ((**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**)) ؛ إذا كان في جماعة وإمام إلزم الجماعة.

ثم ذكر حذيفة ﷺ احتمال ؛ قد يصل الناس في مرحلة من مراحل حياتهم لا يكون إمام ، قال : ((**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟**)) ؛ يعني ليس لهم جماعة وليس لهم إمام فما الذي أفعله؟

((**قَالَ : فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا**)) يعني لا تدخل مع الناس .

((**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُأتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**)) وهذه المرحلة التي فيها الإشارة في حديث حذيفة في وقتنا هذا كثير من الناس في بلدانهم فيه جماعة وفيه إمام ويتفاوت الأمر من منطقة إلى منطقة قوة وضعفا ، لكن الجماعة موجودة والإمام موجود ؛ فيلزم المسلم جماعة المسلمين وإمامهم وينصح لعباد الله بالرفق وبالكلمة الطيبة وبالدعوة إلى دين الله ﷻ وبنشر الخير ، والله ﷻ ناصر دينه ومدافعٌ عن عباده المؤمنين ، لكن تُأتى البيوت من أبوابها وتُسلك الأمور من مسالكها الصحيحة بالدعوة والبيان والنصح والتعليم ، وأن يرفع الإنسان الظلم الذي هو واقعٌ فيه بخوفه من الله ومراقبته لله وإصلاح بيته وولده ؛ والله ﷻ يصلح له حال بلده .

ويدعو لولاة أمره بالصلاح والهداية والسداد والتوفيق ، يقول الفضيل رحمه الله : «لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها الا في السلطان» ، قال عبد الله بن المبارك : «ومن يقوى على هذا إلا مثلك»؛ يعني هذه رتبه ودرجه ليس كل أحد يقوى عليها ، لو يتفكر الإنسان ويقال له هذه دعوة مستجابة لك أطلب الآن دعوة مستجابة ماذا تريد ؟ كثير من الناس يقول أريد فيلا جميلة من دورين ، من الذي يقوى أن يقول: اللهم أصلح ولي أمرنا ؟ من الذي يقوى إلا الإنسان الذي عنده فقه ومعرفة وإدراك ، ولهذا من علامة الخير ومن علامة السنة الدعاء لولاة الأمر بالصلاح والهداية . ومن علامة البدعة والهوى الدعاء عليهم ، والنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال : ((لاَ تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ)) ، بل يصبر؛ إذا كان الأمير أو الوالي فاجراً يصبر على فجوره وينصح بالرفق وباللين وبالكلمة الطيبة ويدعو له بظهر الغيب؛ يدعو له بالصلاح ، بالهداية ، بالتوفيق ؛هذه النصيحة التي قال عنها عليه الصلاة والسلام: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قُلْنَا لِمَنْ ؟ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)) . ويطرد من نفسه الغل؛ ((ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ﷻ ، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الْأَمْرِ ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ)) ؛ يطرد من قلبه الغل لأن الأهواء إذا وُجدت أوجدت في القلب غلاً ولا يتقبل القلب لا لزوم جماعة ولا يقبل القلب أيضا سمعاً وطاعة لولي الأمر ، ومصالح المسلمين وجماعتهم لا تنتظم إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمع

وطاعة . وساعة يعيشها الناس أو يوم يعيشه الناس بإمامٍ جائر خير من سنوات طويلة يعيشونها بدون إمام "لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم" ، فإذا كان الناس بدون إمام فهذا هلاك لهم .

قال: ((**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**)) ؛ فذكر مرحلة أو حالة .

قال: ((**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟**)) إذا وصل الأمر أن لا يوجد جماعة ولا إمام! كلٌ على رأسه فما العمل؟

قال : ((**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا**)) ؛ وهذا تنبيه على الصبر على اعتزال الناس في مثل هذه الحال .

((**وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُأتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**)) ؛ يعني تبقى بعيداً عن الناس منشغلاً بعبادة ربك وطاعته ودعائه واستغفاره إلى أن يأتيك الموت وأنت على هذه الحال .

قال: ((**أخرجاه ، وزاد مسلم**)) ؛ قول المصنف رحمه الله «وزاد مسلم» هذه الزيادة في سنن أبي داود بسند ثابت، وليست في صحيح مسلم .

قال : ((**وزاد مسلم : ثُمَّ مَاذَا ؟**)) يعني قال حذيفة : ((ثم ماذا؟)) ؛ لا تزال أسئلة هذا الصحابي الجليل الناصح الحريص على نفسه وعلى إخوانه جزاه الله خيراً ورضي عنه لا تزال أسئلته متوالية .

((**قَالَ : ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ**)) يعني يعقب هذه المرحلة مرحلة خروج الدجال، وهو علامة من علامات الساعة وأمارة من أمارات قُرب قيامها ، لأن الساعة لا تقوم حتى تخرج علامات من ضمنها خروج الدجال .

ولاحظ هنا ارتباطاً بين دعاة على أبواب جهنم وبين خروج الدجال بعد ذلك ، فكأنهم جاءوا قبله تمهيداً وتوطئة، ولهذا قال العلماء : أن قول النبي ﷺ ((مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) كما أنه يشمل الدجال الأكبر الذي خروجه علامة من علامات الساعة فإنه أيضًا يشمل الجنس ؛ بمعنى أنه يشمل الحذر من كل دجال يقول في دين الله بلا علم ، فأيضاً أمثال هؤلاء يُنأى عنهم، ((مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) ؛ ففتنة الدجال العظيمة ذاك الرجل الذي يخرج في ذاك الزمان إذا سُمع بها يُنأى عنها ، وأيضًا الدجاجلة الذين يدعون الناس إلى النار ودعاتهم على أبواب جهنم أيضا ينأ عنهم ؛ فلا يسمع إليهم ولا يقرأ لهم ويحذر من أقوالهم وكلماتهم، لأن النتيجة عند هذا وهؤلاء واحدة ؛كلها إفضاء بالناس إلى نار جهنم ، ولهذا يأتون قبله وهو يأتي بعدهم فهم كالتوطئة له والتمهيد لمجيئه وقدومه، وأيضا ترويض الناس لقبول ما يدعو إليه الدجال الأكبر ، فهم يأتون قبله ((دعاة على أبواب جهنم)) .

قال: ((**قَالَ ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ**)) ؛ سبحان الله العظيم !! امتحان وابتلاء عظيم ، يخرج هذا الرجل ومعه نهر ونار ، ومكتوب على عينيه كافر يقرأها كل مسلم وكافر ، وإحدى عينيه طافية كأنها عنبة أو كأنها زبيبة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((مَا بَعَثَ اللَّهُ ﷻ نَبِيًّا إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ ، وإني أنذركموه ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)) ؛ علامة واضحة ظاهرة عليه بينة ، ومعه نهر ونار ، وفتنته عظيمة ، والله ﷻ جعل في زمانه أموراً تظهر على يديه بإذن الله امتحاناً كما جاء في بعض الأحاديث أنه إذا مر على قرية ودعا أهلها للإجابة إلى

ما يدعوهم إليه ، لأنه يقول لهم أنا ربكم وهذه جنتي وهذه ناري ويرون جنة ويرون نار معه تمشي؛ فتنة ، فإن أجابوه وإلا قال لكنوز قريتهم اتبعيني، فتخرج الكنوز والناس يرونها تخرج وتتبعه ؛ هذه فتنة ، ولهذا يتبعه خلْق يُفتنون والعياذ بالله ، والنبي ﷺ يقول كما جاء في حديث ثابت ((إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ)) ؛ فتنة عظيمة جداً وينجرف وراءها خلق يضلون عن دين الله جل وعلا بسبب الامتحان والافتتان الذي يحصل لهم ؛ ولهذا أُمِرْنا في كل صلاة أن نتعوذ بالله من فتنته قبل أن نسلّم ((وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ)) ، والصحابة كانوا أيضا يجلسون ويتذاكرون فتنته ويحذِّر بعضهم بعضا من شره ؛ حتى يكون الإنسان على حصانة ، على معرفة به وتعوذ بالله تبارك وتعالى من شره .

((**قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ ؛ فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرُهُ**)) ؛ معنى وقع في ناره : يعني إذا دعاه الدجال أن يستجيب له وقال له إن لم تستجب ألقيتك في النار ؛ فعليه أن لا يستجيب ولو أن يلقيه في النار ، وإذا ألقي في النار ما الذي سيحدُث ؟ قال عليه الصلاة والسلام : ((**فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرُهُ**)) فلا يبالي ، يصبر ويصمد ويتحمّل وإذا ألقي في النار التي معه قال: ((**وَجَبَ أَجْرُهُ**)) أي على الله ، ((**وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرُهُ**)): تحط عنه خطاياه .

((**وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ**)) ماذا يحدث ؟ قال : ((**وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ**)) الذي وقع في نهره هو الذي استجاب له ولدعوته .

((**قَالَ : قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ**)) ؛ قد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ)) ، ((إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ)) ؛ وهنا فيه ارتباط بين هؤلاء وهؤلاء وكلهم شرار وصفهم بذلك عليه الصلاة والسلام ؛ الذين يتخذون القبور مساجد لأن هذه ذريعة الشرك ووسيلة وقوعه ، وشرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة هم الذين ليس عندهم إلا الشرك بالله ﷻ ، فجمع عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث بين الوسيلة والنتيجة ؛ وسيلة الوصول إلى الشرك: اتخاذ القبور مساجد سواء بالبناء عليها أو بتحري العبادة عندها ، ونتيجة ذلك: الشرك بالله ﷻ واتخاذ الأنداد .

وعلى كلٍّ ؛ فهذا الحديث العظيم حديث حذيفة بن اليمان مشتمل على فوائد عظيمة وجليلة ترتبت على هذه السؤالات المباركة التي سألها حذيفة رضي الله عنه للنبي ﷺ ، والنبي ﷺ نصح لأمته وأبان الحجة وأوضح المحجة وبيّن السبيل وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذّرها منه ، فكان رسولاً أمينا ، وناصحاً مشفقا ، ومعلّماً رحيما صلوات الله وسلامه عليه . والواجب على أتباعه والمؤمنين به ﷺ أن يجاهدوا أنفسهم على تعلم سنته ولزوم هديه وأن يحذروا أشد الحذر من البدع والأهواء . ومن الدعوات العظيمة الثابتة عنه ﷺ في المستدرك وغيره أنه كان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : ((اللهُمَّ احْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ قَائِمًا ، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ قَاعِدًا ، وَاحْفَظْنِي

بِالإِسْلاَمِ رَاقِدَا ، وَلاَ تُشْمِتْ بِي عَدُوّاً وَلاَ حَاسِدَا ، اللهُمّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ خزَائِنُهُ بِيَدِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ خَزَائِنُهُ بِيَدِك)) وهي دعوة عظيمة جداً وجامعة لخير الدنيا والآخرة .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السادس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وقال أبو العالية : «تَعَلَّمُوا الإِسْلاَمَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلاَمُ ، وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا ، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ» انتهى .

تأمل كلام أبي العالية رحمه الله تعالى هذا ما أجلّه ،واعرف زمانه الذي يحذّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام ، وتفسير الإسلام بالسنة والإسلام ، وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب ؛ يتبين لك معنى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣١] **وقوله :** ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢] ، **وقوله تعالى :** ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة:١٣٠].

وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول والناس عنها في غفلة . وبمعرفته يتبين معاني الأحاديث في هذا الباب وأمثالُها ، وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمنٌ مطمئن أنها لا تناله ويظنها في قوم كانوا فبانوا آمِنٌ مكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**وقال أبو العالية : تَعَلَّمُوا الإِسْلاَمَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلاَمُ ، وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا ، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)) ؛ هنا ساق المصنف رحمه الله هذه الوصية العظيمة الجامعة لأبي العالية رحمه الله وغفر له ، وهي

وصية من جوامع الوصايا وأعظمها ، وقد أورد المصنف رحمه الله هذه الوصية في موضعها ؛ لما ساق رحمه الله الآيات والأحاديث في إقامة الوجه للدين حنيفاً والبعد عن الانحراف والأهواء والضياع والضلال أورد هذه الوصية الجامعة في تحقيق هذا الغرض الذي هو إقامة الوجه للدين ، وهي وصية من جوامع الوصايا وأنفعها .

وهذه الوصية تشتمل على عدة أمور أوصى بها أبو العالية رحمه الله :

- الأولى : الوصية بتعلم الإسلام ؛ قال: ((**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ**)) : أي لا يكفي أن يقول الإنسان عن نفسه "أنا مسلم وأصلي مع المصلين وأصوم مع الصائمين" دون أن يعطي الإسلام حظاً من وقته لتعلمه ومعرفته ومعرفة ما يضاده ويناقضه ؛ فإن عدم المعرفة تؤدي إلى ضعف الدين تارة ، وإلى ذهابه عن الإنسان تارة ، بينما معرفة الإسلام ومعرفة فضائله ومعرفة ما يدخل فيه ومعرفة نواقضه ونواقصه كل ذلك من الأمور المعِينة على تحقيقه ، لأن تحقيق الإسلام لا يكون إلا بتصفيته وتنقيته من الشوائب ؛ شوائب الشرك ، وشوائب البدع ، وشوائب المعاصي . أما الشرك بالله ﷻ فإنه يناقض أصله ، والبدع تناقض كماله الواجب ما لم تكن مكفِّرة ، والمعاصي تُضْعِف ثوابه وأجره ، وكلها تؤثر على الإسلام ونيل فضائله العظام . ولهذا أوصى أبو العالية رحمه الله بتعلم الإسلام ؛ أن يعطي المسلم الإسلام حظاً من وقته في تعلمه ومعرفة فرائض الإسلام وواجباته وأيضا المحرمات في الإسلام والنواهي ، يجتهد في معرفة المأمور ليفعله ، ومعرفة المحظور لينتهي عنه ، وكيف يتسنى لشخصٍ لا يعرف المأمور ولا يعرف المحظور كيف يتسنى له الفعل والترك !! وفاقد الشيء -كما يقولون- لا يعطيه . فهذه الوصية الأولى : الوصية بتعلم الإسلام .
- ثم يتبع التعلم العمل به ، وهو مقصود التعلم ؛ مقصود تعلم الإسلام: العمل بالإسلام ، ومقصود العلم: العمل، قال علي ﷺ : «يهتف بالعلم العمل؛ فإن أجابه وإلا ارتحل» ، فالعلم مقصوده العمل والتقرب إلى الله ﷻ ، فيأتي بعد التعلم العمل ، ويكون العمل مبني على العلم وليس مبنياً على الجهل ، ومن كان عمله مبنياً على الجهل سيكثر فيه الخطأ والمخالفة وتدخل عليه البدع ، وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «من عبَد الله بغير علم كان ما يفسِد أكثر مما يصلح» ؛ ما يفسد : أي في عبادته وعمله ؛ لأن عبادة الله ﷻ والتقرب إليه إنما يكون بفعل ما أمر ، وما أمر الله ﷻ به يحتاج إلى علم ؛ أن يتعلم المسلم شرع الله تبارك وتعالى ودينه . فالوصية الثانية : العمل بالعلم والمحافظة على الإسلام الذي تعلمه المسلم وعرفه .
- ثم الوصية الثالثة : عدم الرغبة عنه إلى غيره من الأمور التي تناقصه أو تصادمه أو تعارضه أو تخالفه ، ولهذا قال رحمه الله: ((**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)) ؛ قوله «فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ» أي إذا تعلمتموه وعملتم به ، وهذا واضح «فلا ترغبوا عنه» : لا ترغبوا عنه إلى غيره لا في جانب العلم ولا في جانب العمل ؛ لا في جانب العلم بالانشغال عن علم الإسلام بالعلوم القائمة على الكلام مثلا أو الفلسفة أو نحو ذلك مما يتولد من تعلمها مناقضة الإسلام أو معارضته أو مخالفته ، ولا أيضاً في جانب العمل لا ترغبوا عنه

بممارسة أعمالٍ لم تُشرع وعبادات لم يأذن الله ﷻ بها ، فهذه الوصية الثالثة ؛ أوصى بالعلم والعمل ثم حذّر من الرغبة عن الإسلام قال : ((**فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)) . وقوله «فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ» يدل عليه ما تقدم في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ؛ «لا ترغبوا عنه» : أي لا تبغوا غيره بدلاً ولا ترضوا بغيره عوَضاً عنه ، بل هو الدين الحق والدين القويم الذي من حفظه وحافظ عليه سعِد في الدنيا والآخرة .

- قال: ((**وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**)) وهذه الوصية الرابعة : لزوم الصراط المستقيم ؛ الصراط : الطريق ، والمستقيم : أي غير المعوج ، الذي لا انحراف فيه ، «وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ» والصراط المستقيم هو صراط المنعَم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، والمنعَمُ عليهم : هم أهل العلم والعمل والثبات عليه إلى الممات. والمغضوب عليه: من يعلم ولا يعمل . والضال: من يعمل بلا علم . والصراط المستقيم لزومه بالاستقامة على العلم والعمل ، ولهذا لما أوصى بالعلم والعمل وعدم الرغبة عنه أوصى بلزوم صراط الله المستقيم قال تعالى:﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣] ؛ والمستقيم: هو الذي يوصِل إلى الغاية والمطلوب بأخصر وأقرب طريق ، ولا يوصل إلى المقصود بأقرب طريق إلا الطريق المستقيم ، وقد عرفنا من صفات صراط الله ﷻ : الاستقامة واليسر والسعة .

قال: ((**فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**)) قول أبي العالية رحمه الله الصراط المستقيم الإسلام يدل عليه : حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي سبق الإشارة إليه ، قال ﷺ : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ،وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، وَالصِّرَاطُ : الْإِسْلَامُ –وهذا هو معنى قول أبو العالية هنا : «وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ»–، وَالسُّورَانِ : حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ : كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ)) وهو حديث حسن رواه الأمام أحمد وغيره ، وأفرده ابن رجب رحمه الله في جزء مفرد عظيم النفع كبير الفائدة. قال : ((**فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**)) أي الصراط .

- قال: ((**وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا**)) ؛ وهذا فيه الوصية بالاستقامة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت:٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢] ؛ الاستقامة: هي السير باعتدال على الصراط وبدون انحراف عنه لا يمينًا ولا شمالا ؛ وإنما يمضي مستقيمًا على صراط الله المستقيم، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : «لا يروغ روغان الثعلب» ، الثعلب عندما ينطلق لا ينطلق مستقيماً وإنما تجده يذهب يميناً وشمالاً ، يميناً وشمالاً ، لا يستقيم في سيره وإنما يروغ ذات اليمين وذات الشمال مرة يمين ومرة شمال ؛ فالذي يسير على الصراط لا يصلح أن يكون هذا سيره ، مرة ينحرف عن الصراط يميناً

ومرة شمالا، مرة تأخذه الأهواء ومرة تأخذه الشبهات ، فمثل هذا السير لا يصلح من المؤمن الذي يريد لنفسه السعادة ونيل فضائل الإسلام العظيمة .

- قال: ((**وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ**))؛ وهذه وصية سادسة : الوصية بالسنة ولزومها والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ ، وأن يكون المعوَّل عليها والرد إليها والأخذ منها وأن تكون هي المحكَّمة والمؤمَّرة على النفس، ومتى ما كانت السنة هي المحكَّمة صلح حال الإنسان، بخلاف ما إذا كانت الأهواء هي المحكمة عنده، وقد قال بعض السلف : «من أمّر السنة على نفسه نطق بالحكمة» ، قال مالك رحمه الله : «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق». فأوصى بسنة النبي عليه الصلاة والسلام .
- ثم ختم بأمر سابع وهو : التحذير من الأهواء ، قال: ((**وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)) ؛ أي احذروها وابتعدوا عنها وجانبوها وكونوا منها على حذر . والوصية بالسنة والتحذير من هذه الأهواء وصية متكررة عن نبينا عليه الصلاة والسلام ، وكثيراً ما يجمع ﷺ في وصيته بين الترغيب في السنة والتحذير من الأهواء ، وكان إذا خطب الناس ﷺ قال: ((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا)) ، وفي حيث العرباض قال: ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)) ؛ فكثيراً ما يأتي الجمع بين الوصية بالسنة والتحذير من الأهواء والبدعة .

قال: ((**وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)) ؛ أي احذروها . والأهواء أمورٌ تدخل على قلوب الناس فتعبث بها وتحرفها عن الإسلام ؛ فبدل أن تكون الرغبة في القلب هي الرغبة في الإسلام وأعماله وتفاصيله ، تكون الرغبة متجهة إلى أمور أخرى وأعمال أخرى ليست من الإسلام بل ربما مضادةٌ له ومناقضةٌ له ، وكل غير مستجيبٍ للرسول ﷺ فيما دعا إليه وأمر به متبعٌ لهواه كما قال ﷻ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[القصص:٥٠] وكل غير مستجيبٍ للرسول ﷺ فهو متبعٌ لهواه ، والهوى إذا وُجد في القلب أعمى الإنسان عن رؤية الحق وأصمه عن سماعه ؛ الأهواء تعمي وتُصم ، فحذّر رحمه الله في خاتمة وصيته من هذه الأهواء.

انتهى كلام أبو العالية رحمه الله ، وهو موجود في بعض كتب السنة بالإسناد إليه ، ومن المصادر التي فيها هذا الأثر العظيم «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للحافظ اللالكائي رحمه الله .

لما أنهى المصنف رحمه الله ذِكر هذا الأثر العظيم عقّب بالتنبيه على فوائد هذا الأثر العظام الجوامع من هذا الإمام الجليل أبي العالية رحمه الله .

قال المصنف : ((**تأمل كلام أبي العالية رحمه الله**)) ؛ تأمل : أي انظر في كلامه بتدبر وتأمل وتأنٍ ، ولا تقرأه مروراً سريعاً ، لأنك إن قرأته مروراً سريعاً لا تبقى معك الفائدة العظيمة التي اشتمل عليها هذا الأثر ، هذا الأثر

كلماته قلائل لو جمعتها إلى بعض لا تكمل ثلاثة أسطر لكنه جامعٌ للخير ، وشأنه كما قال ابن القيم في كلام السلف عموماً «كلامهم قليل كثير البركة ، وكلام الخلف كثير قليل البركة» ؛ فكلام قليل لكنه مليء بالعلم ، بالخير ، بالإيمان ، بالإسلام ، بالترغيب ، بالترهيب ، بالوصية بالسنة ، بالتحذير من الأهواء ، بالثبات ، بالاستقامة ؛ معاني كثيرة جداً تجدها موجودة في هذا الأثر العظيم .

فيقول المصنف : ((**تأمل كلام أبي العالية رحمه الله هذا ما أجلّه**)) ؛ وهذا ثناء على الكلام ووصف له بأنه كلام جليل عظيم متين مليء بالفائدة والنفع .

((**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء**)) ؛ يقول الشيخ : وأنت تقرأ هذا الكلام أيضا أحضِر في ذهنك الزمان الذي قال فيه أبو العالية هذه الوصية ، متى قال هذه الوصية ؟ هل قالها في القرن السادس؟ السابع ؟ الثامن ؟ التاسع ؟ العاشر ؟ في القرون المتأخرة ؟ استحضر الزمان وأنت تقرأ الوصية .

قال: ((**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام**)) ؛ بعض الناس في الأزمنة المتأخرة إذا حُذّر من الأهواء ومن البدع يتعاظم هذا التحذير ويتكاثره ، ولسان حاله يقول : أين الأهواء حتى نُحذَّر منها !! وأين البدع حتى نُنهى عنها !! ، وربما قال : نحن والحمد لله على الإسلام والسنة وعلى الاستقامة ما عندنا شيء من الأهواء ولا عندنا بدع فلِمَ التحذير منها وما الحاجة إلى النهي عنها !! ، وربما قال بعضهم بهذا الأسلوب "بدعة بدعة!! ما في إلا بدعة" ؛ يتكاثرون التحذير من الأهواء والبدع والنهي عنها ، مع أن أئمة السلف رحمهم الله لهم مصنفات خاصة ، أدركوا خطورة البدع فأطالوا في النهي عنها والتحذير منها وجمع الدلائل في بيان خطورتها .

فالمصنف هنا ينبّه يقول : وأنت تقرأ هذا الأثر المشتمل فيما اشتمل عليه على التحذير من الأهواء والبدع والتحذير عن الرغبة عن الإسلام إلى حيث الأهواء والبدع ؛ أيضا استحضِر الزمان الذي قيل فيه هذا الكلام ، فإن استحضارك للزمان يوجِد عندك تأثر أكثر بهذا الأثر ؛ لماذا؟ لأنك ستقول: إذا كان هذا الإمام قال هذا الكلام في زمانه فكيف بزماننا!! والناس في كل عام يُرذلون ، فلئن كان الناس في زمانه يحتاجون إلى هذا التنبيه فالحاجة إلى ذلك في زماننا أبلغ وأمسّ .

وأعظم من نهي أبي العالية عن ذلك نهي النبي ﷺ المتكرر في كل خطبة ((وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)) ، والذي أمامه صحابته الأخيار من المهاجرين والأنصار ؛ أنصار الدين وأعوانه ، ويكرر في كل خطبة ((وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)) ، ولما أوصاهم وصية ذرفت منها عيونهم ووجلت منها قلوبهم كما في حديث العرباض بن ساريه قالوا «كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا» فقال في وصيته : ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، تمسكوا بها وعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) . ولا يزال السلف تتوالى وصاياهم بالتحذير من البدع والنهي عنها وبيان خطورتها وضررها على الإنسان ، والنقول عنهم في ذلك كثيرة .

استحضار الزمان الذي قيلت فيه هذه الوصية فيه فائدة؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله : ((**واعرف زمانه الذي يحذّر فيه من الأهواء**)) أبو العالية ما هو زمانه ؟ أبو العالية من طبقة كبار التابعين ، وطبقة كبار التابعين هم من أدركوا كثير من الصحابة ، وأبو العالية رُفَيع بن مهْران الرياحي رحمه الله أدرك زمن النبي ﷺ ولم يلقه ولم يسلِم كان على الشرك ، ولقي أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأسلم في خلافته ، وروى عن جمْعٍ من الصحابة منهم عمر وعلي وابن عباس وآخرين من أصحاب النبي ﷺ ، فمنّ الله عليه بالإسلام وبلزوم السنة ، وكلٌ من الإسلام والسنة نعمة عظيمة، ولهذا كان يقول -كما في شرح الاعتقاد للالكائي وغيره- : «ما أدري أي النعمتين عليّ أعظم : إذ أخرجني الله من الشرك إلى الإسلام ، أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوى» ؛ يقول: لا أدري أي النعمتين أعظم !! نعمة الإخراج من الشرك إلى الإسلام ، أو نعمة المحافظة على السنة مع البعد عن الأهواء والحذر منها، كلٌ منهما نعمة عظيمة جداً فلا أدري أي النعمتين أعظم ؛ مشيراً إلى عظمة هاتين النعمتين ، فكان كثير التحذير رحمه الله من الأهواء والبدع . والأهواء بدأت تظهر في الناس ، وفي ذاك الوقت -في أواخر عهد الصحابة- بدأت تظهر بذور الفرق المنحرفة الضالة وأنكرها الصحابة وتبرؤا منها ، وتبرأ منها أعلام التابعين وأعيانهم ، وتبرأ منها كل من كان على نهج السلف وجادّتهم وطريقهم .

الشاهد أن التحذير من الأهواء إذا كان في زمان أبي العالية زمن أكابر التابعين الذين أدركوا الصحابة ولقوا الصحابة وأخذوا عنهم فكيف بالأزمان المتأخرة ؟! فالمصنف ينبه على هذه ؛ كأنه يقول إذا كان في ذاك الزمان الحاجة ماسة إلى التحذير من الأهواء فكيف بزماننا ؟

قال: ((**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام**)) ؛ وهذه فائدة : إتباع الأهواء رغبة عن الإسلام ، لأن الأهواء ليست من الإسلام ؛ الإسلام هو شرع الله الذي أمر به وأذِن به ﷻ في كتابه وسنة نبيه ﷺ ، والأهواء ليست منه ، فمن رغب في الأهواء فهو راغب عن الإسلام ، قال: ((يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام)) وهذا واضح في كلام أبي العالية المتقدِّم ((**فلا ترغبوا عنه**)) ؛ أي الإسلام ، إلى أين ؟ إلى حيث الأهواء المخالفة له .

قال: ((**وتفسيرَ الإسلام بالسنة**)) ؛ «تفسير» معطوفة على «زمانه» ، يعني واعرف زمانه وتفسيره . هذا أمر آخر اعرِفه ؛ اعرِف تفسير الإسلام بالسنة ، حيث فسر أبو العالية رحمه الله الإسلام بالسنة ولزوم الصراط المستقيم الذي كان عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام ؛ فأيضا اعرِف أن الإسلام هو سنة النبي ﷺ وهي صراط الله المستقيم.

((**وخوفه**)) ؛ أيضا هذه معطوفة على «زمانه» ؛ اعرِف زمانه ، وتفسيره الإسلام بالسنة ، وخوفه . خوفه على من؟ يخاف على مَن مِن الأهواء ؟

قال: ((**وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم**)) ؛ لأنه هو من طبقة كبار التابعين ، الطبقة الثانية التي تلي الصحابة ، لما قسّم العلماء أمة محمد عليه الصلاة والسلام أو أهل العلم إلى طبقات : الطبقة الأولى الصحابة ، والطبقة الثانية كبار التابعين منهم أبو العالية ، فوصيته هذه وصية لأكابر علماء التابعين وأعلامهم.

((**وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب**)) ؛ وخروج الإنسان عن السنة والكتاب بماذا؟ بالأهواء ، ولعلكم تذكرون حديث معاوية الذي أشار المصنف فيما سبق إليه وذكر طرفاً منه وفيه قول النبي ﷺ : ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة في الأهواء)) ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ)) ، فكان يخاف على أعلام التابعين وأعيانهم وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب بسبب الأهواء التي تجرف .

وهنا أيضا لك أن تقول واعظاً نفسك وغيرك : إذا كان أبو العالية رحمه الله خاف على علماء التابعين وأعيانهم وأعلامهم من الأهواء أن تجرفهم وتبعدهم عن الكتاب والسنة فكيف بمن هو ليس من العلماء ؟! وكيف بمن هو في الأزمنة المتأخرة ؛ لا علم ولا أيضا قُرب زمان ؟! فالخوف على من كان في زمانٍ متأخر ولا علم عنده بالكتاب والسنة أشد ، أضِف إلى ذلك أن مع قلة العلم وبُعد الزمان عن السنة ثمة مخاطرة بالدين ، تجد الواحد لا يبالي ؛ يسمع لأهل الأهواء لأهل البدع يقرأ لكل أحد يخاطر بدينه .

عبد الله ابن المبارك كان مرةً في مجلس فدخل عليه رجل من أهل الأهواء وأراد أن يقرأ آية من القرآن ، فقال أخرجوه عني ، قال آية من كتاب الله ، قال أخرجوه عني، فلما أخرِج قيل إنما أراد أن يقرأ عليك آية من كتاب الله!! فقال عبد الله ابن المبارك وهو من أئمة السلف وعلماء التابعين : «خشيت أن يطرح في قلبي شبهة تجلجل في صدري حتى أموت» ، تجلجل: يعني تتقلب في قلبي وفي صدري حتى أموت ما أستطيع أن أخرِجها . وكان طاووس يمشي مع ابنه فمروا برجل من أهل الأهواء فأراد أن يتكلم فأدخل طاووس أصبعيه في أذنيه وقال لابنه إبراهيم أدخل أصبعيك في أذنيك ، فلما بدأ يتكلم ذلك الرجل صاحب الهوى التفت طاووس إلى ابنه إبراهيم وقال: «يا إبراهيم أشدُد» يعني أدخل أصابعك جيداً في أذنيك بحيث لا يصل إليك ولا كلمة .

يخافون من الأهواء وعندهم علم وفقه ومعرفة بالسنة ، وفي الأزمنة المتأخرة لا علم ولا فقه ولا معرفة بالسنة وتجده يجلس أمام القنوات الفضائية يسمع لكل أحد!! وتجده يجلس أمام الشبكة العنكبوتية يقرأ لكل أحد !! وتجده يفتح كل مجلة ويقرأ كل كتاب ولا علم عنده !! ولهذا ترى في زماننا هذا وبكثرة يسأل الناس عن بدع ومحدثات ، يتصلون بأهل العلم ويقولون هل يجوز أن نذكر الله بكذا وكذا ؟ هل يجوز أن نفعل كذا في اليوم عشر مرات ؟ وهي بدع ليس لها دليل ولا لها أصل ، فيُقبِلون على سماع أشياء يحتاجون بعد ذلك إلى سؤال أهل العلم لتنبيههم على خطئها ، ثم هل يقتنع بأنها خطأ أو لا يقتنع هذه مسألة ثانية ، بعضهم مع قول أهل العلم له أن هذا الأمر لا أصل له ربما تستهويه البدع وتستميله وتجرفه لا يقتنع ، وربما قال له مضِل : "دعك من هؤلاء ؛ ما بقي شيء ،

كل شيء بدعة ، ما تركوا شيء" ، وقوله "ما تركوا شيء" أي من البدع ، أما من الإسلام ما حذّر منه أهل العلم ولا يحذّرون منه ، وإنما يحذّرون ما خالف الإسلام وما لا دليل عليه في الإسلام وما لا دليل عليه في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ودأب أئمة العلم وعلماء السلف في قديم الزمان وحديثه الترغيب في الإسلام الذي هو السنة والتحذير من الأهواء التي هي البدع المحدثات ، ولكن بسبب الجهل وتراكمه على الناس أصبح التحذير من البدع يعد خطئًا ، لِمَ ؟ للرغبة في البدع من جهة ، والرغبة عن السنن من جهة أخرى . ولهذا يظهر في بعض المجتمعات إقبال شديد على بدع لا يفرِّط فيها! وفي المقابل يفرط في فرائض من فرائض الإسلام ، مثلاً صلاة الفجر لا يحافظ عليها وبعض البدع لا يفرط فيها مهما كان الأمر ومهما كانت ظروفه ومهما كانت أحواله ، ويفرط في فرائض !! ، ولم تُحدَث بدعة ولم تُقم بدعة إلا أميت في مقابلها سنة أو سنن كما نبه على ذلك أهل العلم . فالمسألة جدُّ خطيرة ؛ يحتاج الإنسان إلى أن يجاهد نفسه على العلم والتعلم والسنة ومعرفتها ، ولا يخاطر بدينه بالسماع لكل أحد والقراءة لكل أحد ، فهذا نوع من المخاطرة بالدين وقد حذّر منه أهل العلم في قديم الزمان وحديثه .

قال: ((**وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب يتبين لك**)) ؛ أي بهذا التأمل ، إذا تأملت في هذه النقاط في أثر أبي العالية :

١- إذا تأملت زمانه.

٢- إذا تأملت تفسيره للإسلام بالسنة .

٣- إذا تأملت تخويفه لأعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب .

إذا تأملت في هذه النقاط يتبين لك معنى قوله تعالى:﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾، وقول إبراهيم:﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ معنى هذه الكلمة تظهر لك بتأمل كلام أبي العالية؛ لماذا ؟ لأن في الناس خلْقٌ يقول كل واحدٍ عن نفسه إنني مسلم ، وبعضهم ليس عنده من الإسلام إلا اسمه -إلا اسم الإسلام- ، وبعضهم عنده الإسلام وعنده بعض أمور الإسلام لكن عنده أمور مخالفة له ، وبعضهم عنده شيء من أعمال الإسلام وعنده أمورٌ تنقض الإسلام ؛ يعبد غير الله ، يشرك مع الله غيره في العبادة ، يستغيث بغير الله ، يطلب المدد من غير الله ، يصرف عبادة لغير الله ، عنده أعمال من أعمال الإسلام وعنده عقائد تهدم الدين ، والله يقول : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] ؛ يكون عنده أمور محبطة ، الله جل وعلا قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥] ، قد يكون عند الإنسان أعمال ولكن عنده أيضا محبطاتٌ لها ، فيقول أنت إذا تأملت في هذه النقاط المتقدمة ستعرف معنى

﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ ،كأنه يريد أن يقول : ليس الإسلام مجرد انتساب ، ليس الإسلام تدين بما يريد العبد وما يهوى من أعمال ، ليس الإسلام ممارسات كيفما كانت ، الإسلام : استسلامٌ لله بما شرع ؛ استسلام لله بالإخلاص ، بما شرع : أي بلزوم الكتاب والسنة ، فمن لم يستسلم لله فجعل مع الله شريك ليس بمسلم ، ومن رغب عن دين الله الذي هو في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام فليس بمسلم ؛ الإسلام هو الاستسلام لله بما شرع ﷻ وبما أمر الله ﷻ عباده به .

فيقول : أنت إذا تأملت الكلام المتقدم ستعرف معنى هذه الآية وغيرها من الآيات التي فيها الأمر بالإسلام والاستسلام لله ﷻ ، وستعرف أنه لا يكفيك حظاً ونصيباً من الإسلام مجرد الانتساب أو مجرد أعمال معيّنة وبالمقابل مناقضة ومخالفة للإسلام في العقيدة أو العمل، لا يكفي، أو أن يرغب الإنسان عن الإسلام باتباع الأهواء لا يقيم للكتاب والسنة وزناً ، ويجعل إمامه هواه ، أو يجعل إمامه متبوعه من أئمة الضلال ودعاة الباطل ، أو يجعل إمامه ذوقه ، أو نحو ذلك من الأمور التي بسببها وبسبب التعويل عليها حدث في كثير رغبة عن الإسلام إلى حيث الضلال والباطل .

قال: ((**وقوله**)) أي أيضاً يتبين لك معنى قوله : ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ؛ يتبين لك الإسلام الذي وصى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بنيهم به ما هو ؟ وما حقيقته؟ فبالكلام المتقدم يتبين لك ذلك .

((**وقوله تعالى**)) أيضاً يتبين لك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ؛ ما هي الرغبة عن ملة إبراهيم ؟ اقرأ قول أبي العالية ((**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)) ، ثم فسر الإسلام بالسنة فالرغبة عن السنة إلى الأهواء هذا من الرغبة عن ملة إبراهيم، لأن ملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة، لزوم شرع الله ﷻ ، وكم من أقوامٍ يمارسون عبادات وأذكار مهلكة ومضنية وشديدة ومتعِبة ولا يقيمون وزناً للأذكار المشروعة بل لا يعرفونها !! تجده لا يعرف الأذكار الصحيحة التي تقال في الصباح وفي المساء ثم يقوم في الليل على قدميه يهز وسَطَه ويقفز قفزاً ويردد كلماتٍ غير مشروعة ، فالعمل منكر والقول منكر وهو في قرارة نفسه يتقرب إلى الله ﷻ ويعبد الله ، وربما يرى نفسه من أحسن العبّاد لله ﷻ بالرقص والهز والقفز وترداد كلمات ليس من شرع الله تبارك وتعالى التقرب إلى الله بها ، حتى إن أقواماً هجروا أفضل الكلمات «لا إله إلا الله» وانتقصوا من قدرها وقالوا إن الذكر إنما يكون بالضمير «هو» ، وقالوا هذا ذكر الخواص أما العوام فلهم «لا إله إلا الله» ، ويرددون هذا الضمير بصوت واحد جماعات وربما مع قفز ورقص .

حدثني أحد من اهتدى من هؤلاء عن هذا العمل قال : كنا نجتمع في حائط -يعني في بستان- عدد كبير ونردد الضمير "هو" بصوت واحد وقتاً طويلاً ، قال لي هو نفسه بالحرف الواحد : لو كنت وراء الجدار تسمع الصوت

ولا ترى شخصنا لم يقع في قلبك شك أن من وراء الجدار ليسوا من بني آدم ، سمى لي حيواناً من الحيوانات ، وهم بزعمهم أنهم في ذكر لله ﷻ.

ثم «لا إله إلا الله» التي قال عنها عليه الصلاة والسلام ((خَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) ينتقصونها ، وفي وصية نوح لابنه قال : ((آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) ثم يرغبون عنها ويشتغلون بمثل هذه الأمور!! هذا كله من الضياع ، وهي ممارسات تُفعل وتمارس على أنها من الدين ، وأشنع من هذا وأفظع من يجعل دعائه لغير الله طالباً مدداً أو عوناً أو غوثاً من نبي أو ولي أو ملَك أو حجر أو شجر ، أو يقول في مناجاته :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

يعني نبي الله عليه الصلاة والسلام. هذا كله من ضياع الدين بالرغبة عنه وعن هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

أمور كثيرة جداً حذّر منها العلماء ونهوا عنها وبيّنوا خطورتها وهي تتكاثر في الناس وتدْرُج بينهم عندما يجهلون سنة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فتأتي وصية أبي العالية في مكانها ((**تعلموا الإسلام**)) ، ولتكن هذه لك قاعدة في تعلمك ، عندما يعلمك معلم أو ينصحك ناصح بأمرٍ ما تأكد هل هو من الإسلام أو ليس منه ؟ فإذا قلت له ما دليل ذلك ؟ وروى لك دليلاً عليه : منام ، أو قال هذا شيء عرفناه بالذوق ، أو قال مثلاً هذا خلاصة أفكارنا أو أفكار مشايخنا ، إلى غير ذلك من الكلام دعه جانباً ، الإسلام : قال الله قال رسوله عليه الصلاة والسلام ، وجادة السلف رحمهم الله في تعليم الإسلام هي هذه ؛ يضعون أبواب ويذكرون تحتها آيات وأحاديث ، هذه جادّتهم؛ تعليم الإسلام بتعليم الناس كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ولا ينجي الإنسان من الهلاك إلا تعلم الإسلام الصحيح المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأيضاً بفهم السلف، والمصنف رحمة الله عليه هنا يعطيك منهجاً في فهم النصوص ، لم يستقل هو هنا بفهمه ؛ وإنما أورد لك كلام أبي العالية ونبهك على فوائده ، فالعلم الذي قدّمه لك آيات وأحاديث ثم أوضح لك معناها من كلام السلف ، وهذا هو المنهج الصحيح ؛ أخْذ العلم من الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح . بعض الناس يدخل في فهم الكتاب والسنة وفهم بعض الآيات وفهم بعض الأحاديث بتخرصات أو بخرافات ترِد على عقله ويحاول أن يركّبها فيجعلها فهماً للقرآن أو ربما سماها "فتح" ، أحد المصنفين كتب كتاباً حول القرآن سماه «الفتوح الإلهيه» خرافات كله وسماه فتوحات إلهية ويذكر فيه أشياء من الخرافات .

فهذه الأمور ينبه المصنف على الحذر منها حتى وأن سُميت ما سميت وزُينت ؛ يحذر منها ويكون في فهمه للآية والحديث مستنِداً إلى فهم السلف الصالح ، وهذه جادّة مباركة فيها السلامة وفيها الخير وفيها البركة . والمصنف لما ذكر لك الآيات في إقامة الوجه للدين والأحاديث في هذا المعنى أعقب ذلك بهذا الأثر لأحد كبار التابعين وهو أبو العالية رحمه الله ، ثم نبهك على شيء من فوائده العظيمة .

قال : ((**وأشباه هذه الأصول الكبار**)) يعني أن ذِكره لهذه الآيات الثلاث مثال ؛ وإلا فإن أثر أبي العالية يعينك على فهم القرآن والسنة الفهم الصحيح ، وليس أثر أبي العالية فقط؛ بل الآثار التي عن التابعين وأتباعهم وأئمة العلم المتقدمين تعينك على فهم كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام .

قال: ((**وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول**)) ؛ الإسلام والإيمان وأركان الإيمان وأركان الإسلام هذه الأصول الكبار العظيمة معرفتها وتعلمها والسير فيها على جادةٍ سوية وهديٍ قويم لا يكون إلا بالرجوع إلى فهم السلف الصالح ، أما إذا استقل الإنسان بفهمه فإنه قد يدخل عليه أنواع من الانحرافات يراها سداداً وهي انحراف ، قد قال الإمام أحمد : «إيَّاكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةٍ لَيْسَ لَك فِيهَا إمَامٌ» يعني من السلف رحمهم الله ، لأن فهمهم أسدّ ، وقربهم من زمن النبوة وصفاء القلوب وحُسن العلم والسلامة من الأهواء ، ما كانت الأهواء تصل إليهم ، حفظهم الله ﷻ منها ، ويحافظون على السلامة من سماعها ، لا يسمع إلا السنة ، ولا يتيح فرصة لصاحب هوى أن يتكلم عنده ، هل يقارن فهم شخص بهذه الصفة بشخصٍ ذهنه مشوش وأفكاره مضطربة ويسمع يعني لكل أحد ثم يريد أن يبين معاني الإسلام وذهنه مليء بهذه التشوشات؟! هل يقارن أمثال هؤلاء بأئمة السلف في صفاءهم ونقائهم وزكائهم وحرصهم وعبادتهم !! جمعوا بين العلم والعمل ، أبو العالية علمه هذا أخذه برويّة وبأناة وبتؤدة حتى قال في ترجمته : «أذهب إلى الشخص لأتعلم عنه فأنظر في صلاته» ، فجمعوا علمهم هذا بوقت وبأناة وعن أئمة وأكابر فهل يقارن علمهم بعلم غيرهم ؟!

فإذاً فهم السلف ضرورة ، ولهذا الله ﷻ قال في القرآن : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١١٥] سبيل المؤمنين هو هذا ، ونبينا عليه الصلاة والسلام قال: ((عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي)) ، وقال : ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي)) ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، ومالك رحمه الله يقول : «مالم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فليس اليوم دينًا»، سيأتي معنا أثر ابن مسعود لما رأى بعض الذين يذكرون الله بصفة محدثة قال : «أما إنكم جئتم ببدعة ظلما أو فقتم أصحاب محمد علمًا» ؛ فمثل هذه الأمور تبين لك ضرورة الارتباط بفهم السلف الصالح رحمهم الله لكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام .

قال: ((**والناس عنها في غفلة**)) ؛ أي هذه الأصول وهذه المعاني العظام الناس عنها في غفلة ، بسبب الجهل ، وتراكم الأهواء ، وتنوع الفتن وطرقها للناس من مجالات كثيرة ووسائل عديدة .

قال: ((**وبمعرفته يتبن معاني الأحاديث في هذا الباب وأمثالها**)) ؛ يعني أمثال هذه الأحاديث ، وهذا كما قلت ينبهك على قاعدة مفيدة وأصل شريف في العلم وهو : العناية بفهم السلف لكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، ومن أنواع التفسير عند أهل العلم : تفسير القرآن بالقرآن ، وتفسير القرآن بالحديث ، وتفسير القرآن بالمأثور ؛ ولهذا تقرأ في ابن جرير وابن كثير وغيرها من كتب التفسير بالمأثور عقِب كل آية ينقل لك في الغالب عن ابن عباس وعن مجاهد وعن أبي العالية وعن غيرهم معاني الآيات ، وترى في تفسير الآيات كلام مختصر جدًا لكنه فيه الكفاية والغنية ، وبعض التفاسير المطوّلة التي لم تنهج نهج السلف قيل عن بعضها: "فيه كل شي إلا التفسير"، يعني مجلدات كبار وبزعم من كتبها يفسر القرآن ولما نظر فيه العلماء قالوا هذه الكلمة "فيه كل شيء إلا التفسير"، وتجد بعض الناس يرغِّب في هذه التفاسير المتأخرة ويحذِّر من فهم السلف ويقول هذه تواكب العصر!! ولو قال تواكب البدع لكان أوفق ، وتلك تواكب السنن . وعندما يشتغل الإنسان بهذه التفاسير يذهب عن حقيقة الإيمان وعن حقيقة ما دل عليه القرآن إلى أن يسبح بأفكاره وخياله وعقله وفكره ويورِد تصورات يجعلها هو نفسه فهماً للآيات ، بمعنى أنه تصوّر أولا ثم أراد أن يفهم القرآن ، على خلاف طريقة السلف ؛ السلف رحمة الله عليهم كانوا يأتون للقرآن متجردين عن الأهواء وعن غيرها ويريد أن يفهم القرآن ، أما الخلف يأتي وعنده تصورات معيّنه ثم يريد أن يفهم الآيات على ضوء تصوراته فيلوي المعاني إلى حيث يريد ، وهذا ما يسمى بتحريف المعاني الذي كثر في كتب الخلف ، ووُجدت تفاسير مبنية على تحريف وتأويل في صفات الله في أسمائه في الأحكام وما يتعلق باليوم الأخر وأمور أخرى كثيرة وُجد فيها مثل هذه الأشياء. فالمصنف رحمه الله ينبه على هذه الفائدة العظيمة وهي ضرورة وأهمية الرجوع إلى فهم السلف وعلم السلف رحمهم الله وهو كلام كما قدَّمت عن ابن القيم قليل كثير البركة.

قال: ((**وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن**)) ؛ لاحظ هذه الكلمة مهمة جداً في التنبيه على خطأ متكاثر في الناس .

((**أما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله**)) ؛ يعني مثلاً يقرأ ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ يقول : "الحمد لله مسلم وأصلي وأنا في عافية من الرغبة عن الإسلام ، لست من هؤلاء" آمِن ، وتجده يحيط به الجهل وتحيط به البدع وتحيط به الخرافات وتحيط به الأهواء والأوهام وفي الوقت نفسه آمِن ومطمئن ، ويقرأ الآيات ويمر عليها مرات ولكنه يقول هذه لا تعنيني ، وإذا قُرأت عليه هذه الآيات

وأمثالها ونُبه على الخطأ الذي عنده في مخالفته لهذه الآيات يغضب ، وغضبه مبني على امتلاء قلبه بالهوى ، وإلا لو أن الإنسان قلبه راغب في السنة إذا حُذر من الخطأ يُقبِل لا يدبر .

قال: ((**أما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله ويظنها في قوم كانوا فبانوا**)) ؛ يعني يقول "هذه الآيات لا تتحدث عنا" ، ربما يقول "هذه خاصة بالمشركين الذين بُعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام، هذه لا تعنينا ولا تخصنا" ، تجده يستغيث بغير الله وإذا قيل له ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٥] يقول لا ؛ هذه لكفار قريش ليس لنا بها علاقة ، ورب العالمين يقول : ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر:٤٣] ، إذا وُجد الكفر في أي وقت ووُجد الشرك في أي زمان وبأي أسلوب ومن أي شخص الحكم واحد ، وقل هذا في عموم الآيات . والسلف بل الأنبياء كانوا يخافون على أنفسهم ، إبراهيم الخليل وهو الذي كسر الأصنام بيده ذكر الله ﷻ دعائه في القرآن قال : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] ، والنبي ﷺ قال للصحابة: ((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ)) ، وقال عليه الصلاة والسلام لهم : ((للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل)) ، فإذا كان الإنسان آمن من الشرك وآمن من البدعة وليس خائفاً ولا يقول بصدق "اللهم أعذني من الشرك ، اللهم أعذني من البدع" آمن ويظن أنه برئ من هذه وسالم منها هذا على خطر ، وقد قال الله تعالى : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] ؛ أفأمن مكر الله أن يكون ما يكون عليه نوع من الاستدراج له ؛ إما توسعة في المال أو توسعة في الرزق أو أشياء من هذا القبيل ، ثم هو يقيم على شركيات ويقيم على بدع وعلى ضلالات ما أنزل الله بها من سلطان ثم في قرارة نفسه يرى أن عمله أصح الأعمال وعباداته أزكى العبادات؛ هذا على خطر إذا كان على هذه الصفة .

وهنا ملاحظة أشار إليها الحسن البصري رحمه الله في بعض كلامه قال: «المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمْن» ؛ المؤمن يحسن في العمل والاتباع ولزوم السنة ويجتهد في الطاعات والعبادات وهو خائف ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[المؤمنون:٦٠] ، والآخر المنافق يسئ بفعل الشركيات بفعل الضلالات وهو آمن يرى نفسه من أحسن الناس وأصلحهم حالا . ابن أبي مليكة من أجلَّة التابعين أدرك عدداً من الصحابة يقول رحمه الله : «أدركت أكثر من ثلاثين صحابياً كلهم يخاف النفاق على نفسه» ؛ صلاح في العمل وخوف ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ، وغيرهم فساد في العمل وضعف في العمل وقصور في العمل وأمن!! يرى نفسه من أصلح الناس وأزكاهم وهو مضيّع في أعماله وفي عباداته وفي أموره ، فهذه

مصيبة، وصلاح الإنسان بأن يعود بنفسه إلى إتباع الرعيل الأول ؛ الصحابة ومن اتبعهم بإحسان ، يقرأ كلامهم ، يتأمل في سيَرهم يجد فيها صلاحاً وزكاءً وقدوةً ، وقد قيل :

كرر عليّ حديثهم يا حادي فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

نحن مشكلتنا الآن نقرأ لكل أحد إلا سيرة السلف ، سيرة السلف نحن في غربة عن قراءتها ومعرفتها ، ثم يريد مع ذلك الإنسان لنفسه أن يبقى على سلامة في صحة إسلامه وسنته وإتباعه .

قال رحمه الله :

وعن ابن مسعود ﷺ قال : ((خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ وقَرَأَ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ رواه أحمد والنسائي .

****

ثم ختم المصنف رحمه الله هذا الباب العظيم ((باب ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا﴾)) بهذا الحديث ؛ حديث ابن مسعود لأنه يبين لك المسار الصحيح ويحذرك من المسارات المنحرفة .

فيقول ابن مسعود : ((**خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ**)) ؛ يعني خط خطاً مستقيما ليس فيه اعوجاج ولا انحراف ثم قال هذا سبيل الله .

((**ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ**)) ؛ انتبه هنا إلى فائدة لطيفة ؛ خط خطاً مستقيماً بدون الخطوط ثم قال هذا سبيل الله يعني خط مستقيم ، ثم بعد ذلك خط في جنبه خطوط عن يمينه وعن شماله وقال في وصفها : ((**هَذِهِ سُبُلٌ؛ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)) ؛ أي أنك إذا أسلمت واستقمت ومشيت على الصراط سيأتيك على يمينك وعلى يسارك على مد الصراط إلى أن يتوفاك الله سيأتيك باستمرار مفترقات في الطرق .

((**وعَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)) ؛ وهذه السبل ترجع في جملتها إلى سبيلين : سبيل شهوة ، وسبيل شبهة . إما شبهات أو شهوات ؛ شبهات تفسد العقائد والعلوم ، أو شهوات تفسد الأعمال والسلوك ؛ وهي متنوعة ، فالسبل بتنوع ما يتعلق بالشبهات وما يتعلق بالشهوات . فهذه تأتي الإنسان مادام ماضياً على صراط الله المستقيم إلى أن يموت وهي لا تزال تأتيه ، حتى في لحظاته الأخيرة حتى في ساعات الاحتضار لا يزال الشيطان حريصاً على الإنسان وقد أيضا يرافده ويعاونه من شياطين الإنس من يحضرون عند الميت ليثبُت على الكفر أو ليثبُت على الضلال أو ليثبُت على البدعة ، فيحتاج الإنسان في سيره يعني في تحقيق معنى الآية ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم:٣٠] أن لا يميل لا شمال ولا يمين ، بل يبقى مستقيماً على صراط الله المستقيم .

قال: ((**عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)) ؛ هل المراد هنا بالشيطان شياطين الجن ؟ أم أنه يشمل شياطين الإنس؟ والله ﷻ قال: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام:١١٢] فليس خاصاً بهذا . ويدخل تحت قوله : ((**عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ**)) قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المتقدم في الباب نفسه : ((دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا)) في النار ، فهؤلاء الدعاة قد يكونون من شياطين الجن وقد يكونون من شياطين الإنس وهم خلطاء الشر وقرناء الفساد ، ولا يلزم أن يكون الواحد منهم قريناً للإنسان ملازماً له ، الآن أصبحت الخلطة لا تختص بالمجالِس من الأشخاص بل بالمشاهَد ، وهذه وسيلة في العصر للخلطة أمام القنوات الفضائية أمام الشبكات العنكبوتية ، والآن يحصل في زماننا بسبب وجود هذه الآلات آلات الفساد يحصل خلوات غير شرعية يتورط فيها كثير من الناس ، يكون وحده في غرفة وأمامه القنوات وأمامه تلك الشبكات العنكبوتية وفيها من وسائل الانحراف في الشبهة والشهوة الشيء الكثير ، ثم يلتفت الشخص في الغرفة التي هو فيها وإذا الباب مغلق ولا أحد من الناس يراه فيكون في خلوة مع أدوات الفساد فتعبث به ، يجلس أمامها وهو مطمئن أنه لا أحد من الناس يراه ، ورب العرش يراه .

إذا خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قل علي رقيب

وربما لو فُتح عليه الباب وهو في تلك الخلوة لاستحيا من الناس أن يروه وهو يشاهد ما يشاهد وينظر إلى ما ينظر إليه ، والنبي ﷺ قال: ((اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ)) ؛ استحي ممن خلقك الذي يراك يطلع عليك في خلوتك وفي جلوتك في سرك وفي علانيتك ، ((اتق الله حيثما كنت)) ، كل هذا من ضعف الدين ورقَّته ومن مخاطرة الناس بأديانهم ، ثم ينشأ عن مثل هذه الخلوات تحلل في الأخلاق ، في العقول ، في الأفكار ، في العبادات ، في الأعمال، تبدأ حال الإنسان تتبلد ، حتى إن بعضهم مع طول مجالسته أنكر قلبه بسبب هذه الأمور .

فالدعاة على أبواب جهنم والسبل التي على كل سبيل منها شيطان في زماننا هذا اتسعت ، واستجدّت في الزمان أمور لم تكن موجودة قبل ، أصبح الإنسان في بيته وفي غرفته فساد العالم كله يصل إليه ، وكانوا قديماً الكفار سبيلهم إلى الوصول إلى عقول المسلمين أو أفراد المسلمين ضعيف جدا ، قديما قبل وجود القنوات هذه وقبل وجود الوسائل الموجودة قبل وجود وسائل الاتصال الحديثة الكافر من أين له أن يصل إلى عقل المسلم ؟ انظر قرى المسلمين في بلدانهم من أين يصل الكافر إلى عقله؟ ماله إلا طريق واحد أن يأتي ، وإذا دخل عليهم في قريتهم طردوه ما أحد يستمع له ، لكن الآن بسبب وسائل الاتصال الحديثة والقنوات وغيرها أصبحت سموم العالم وحثالات البشر وزبالات العقول وعفن الكفار كل هذه الأمور تأتي وتصُب ، وتجد الأولاد والنساء وغيرهم يسمعون ، ثم وُضعت لهم قواعد توسِّع لهم قاعدة السماع لكل أحد ، يعني مثلا يقول لماذا الانطوائية ؟ يأتون بعبارات غليظة شيئاً ما وتزاحم عقل الإنسان ويريد أن ينفك منها فلا يكون انطوائيا فينظر للإباحية مثلا حتى لا

يكون إنطوائيا ، أو ينظر لشبهات أهل البدع وأهل الضلال ، أو يقول مثلا لماذا التقوقع ؟ يأتون بعبارات غليظة يضرب بها قلب الإنسان وعقله ثم يفتح له أبواب ليسمع لكل ناعق وينظر لكل أحد حتى لا يكون بزعم أولئك متقوقعاً أو منطوياً أو منعزلاً أو متحجراً ، يقول لماذا التحجر؟ يأتون بعبارات قوية جدا ، ومن يخاطَب بهذه العبارات ضعيف العلم ضعيف الإيمان ضعيف الفهم ؛ فيريد أن لا يكون متقوقعا ولا متحجرًا ولا من أهل هذه الأوصاف فيبدأ يفتح كل شيء وينظر إلى أن تتخلخل العقائد والأعمال ، فهذه خطورة بالغة جداً يحتاج من أراد أن يقيم وجهه للدين حنيفاً أن يجاهد نفسه في البعد عن هذه الأمور وأن يحفظ نفسه من الوقوع في هذه الأشياء.

قال : ((وقَرَأَ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾))؛ اللهم اجعلنا من عبادك المتقين ، وأصلح لنا شأننا كله يا رب العالمين ، وأعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأعذنا من البدع والأهواء ، واهدنا اليك صراطاً مستقيما .

والله أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .